سومر شحادة

الحاصل على جائزة نجيب محفوظ
للرواية العربية ٢٠٢١

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

الآنْ بدأتْ حياتي

رواية

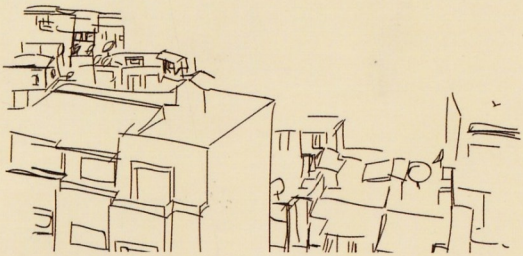

فجأة، وقبل أن يهاجر مع زوجته إلى أمريكا، يموت المحامي السوري الناجح يوسف. هل انتحر، أم قُتل، أم كان موته حادث قضاء وقدر؟

تحقق الشرطة مع من حوله: صديقه المقرب إياس، وصديقة عائلته لين، وزوجته ريما ووالدتها... فنكتشف من خلال الرواية، التي تدور أحداثها خلال يوم واحد، مفاجآت غير متوقعة، ومجتمعًا يخفي أكثر مما يظهر.

رواية عن الصداقة والخديعة، عن وهم الحب والانتظار، تُصوِّر عالمًا مضطربًا في زمن موات الحرية.

رواية عن أناس صنعتهم الحرب قبل أن تمضي، وتترك ألغامها داخلهم.

رواية مثيرة ومؤثرة وكاشفة للأديب السوري سومر شحادة الحاصل على جائزة الطيب صالح العالمية للإبداع الكتابي وجائزة نجيب محفوظ للرواية العربية. صدرت له عن دار الكرمة رواية «منازل الأمس» (٢٠٢٣).

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

الكرمة

سومر شحادة

الآن بدأتْ حياتي

رواية

telegram @
yasmeenbook

الكرمة

الكرمة

alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmabooks
twitter.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٤

© دار الكرمة ٢٠٢٤
© سومر شحادة ٢٠٢٤

مكتبة ياسمين

telegram @
yasmeenbook

شحادة، سومر.
الان بدأت حياتي: رواية / سومر شحادة - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٤.
٢٠٠ ص؛ ٢٠ سم.
تدمك: 9789778721904
١ - القصص العربية.
أ- العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٩٤١١ / ٢٠٢٣

٢٤٦٨١٠٩٧٥٣

لوحة الغلاف إهداء كريم من الفنانة السورية جنان داوود
تصميم الغلاف: أحمد فرج

هذه الرواية من نسج الخيال، وأي شبه بين أشخاصها وحوادثها وأماكنها مع أشخاص حقيقيين وحوادث وأماكن حقيقية هو محضُ مصادفة ومجردٌ من أي قصد.

الفصل الأول

الشخصيات

telegram @
yasmeenbook

إياس

أعيش بمفردي منذ عامين وعدة أشهر، زوجتي تركتني، هي مَن طلبت الانفصال، وأخذت ابني معها. أعيش بمفردي وفي رأسي قيود الماضي؛ زوجتي تركتني، هي مَن طلبت الانفصال، وأخذت ابني معها.

* * *

كنت أبحث عن البُن بعد أن رميتُه في مكان لا أذكره، إثر عودتي من منزل يوسف. وقد اعتدت ترك المنزل فوضويًّا، واعتاد من يأتي إلى زيارتي على تجاهل الفوضى التي أعيش وسطها. بعد انفصال صفاء عني عدت فوضويًّا من غير أن أشعر بضغط العيش معها. كما لم أعُد أشعر بالحرج بسبب فوضاي، أيًّا كان زائري، أو هذا ما اعتقدته... بعد سنوات من العيش، يتعلم المرء أن يتباهى بنواقصه، أو على الأقل لا تعود تسبِّب له الإحراج، ويتوقف عن شرح نفسه للآخرين.

كنت أحضر البُن بعد أن وجدته على الكرسي في الردهة قرب الباب؛ عندما سمعت ضربات خفيفة إلى درجة أنني لو لم أكن في

الردهة لما سمعتها. مع ذلك، تجاهلت الضربات في البداية. أخذت البُن، وهممت بالعودة إلى المطبخ. لكن الضربات عادت باللطف والإلحاح الخجول ذاته، بالمثابرة واليأس أنفسهما، وكأنما من يقف في بابي إنسان هارب. تَشكَّل لديَّ هذا الانطباع قبل أن أفتح الباب، وترددتُ أن أفتح، كنت حريصًا على الهدوء الذي وصلتْ إليه حياتي. لكن في النهاية، وأنا أحمل البُن بيد، وأمسِّدُ لحيتي المتواضعة باليد الأخرى؛ توجهت صَوب الباب بحذر يقارب ضربات الإنسان الخائف في الخارج.

شعرت وأنا أشقُّ الباب بحذر بأننا كائنان مذعوران، أحدنا في الداخل والآخر في الخارج. أخيرًا فتحت الباب، ورأيت لين تقف في باب منزلي. لم تحتَج إلى أن أدعوها إلى الدخول؛ ما إن فتحتُ الباب حتى انسلَّت من الحيز الضيق بيني وبين الجدار، ودخلت الردهة. دخلتْ، وتبعتها. وانتبهت إلى العجالة التي قطعت بها الردهة، وانتبهت إلى توجهها مباشرة إلى الأريكة ما إن دخلت المنزل. لم تبدُ عليها الحيرة في الداخل، كانت تعرف خطواتها، وكأنما تركت ذعرها وترددها في الخارج.

وجدتها أمامي تجلس على الأريكة الثلاثية في الصالون، وتنظر نحوي بعينين مخذولتين. لم تكن طريقة جلوسها تخلو من الخِفة، وقد شعرت منذ ليلة الأمس بأن لديها طبعًا عفويًّا. كانت تجلس مرتاحةً، تباعد ساقيها. وقد وجدتِ الوقت لتسحب إحدى الوسائد وتضعها في حجرها. أسندت رأسها إلى يديها، وأخذت تنظر نحوي. سلبت فؤادي بتلقائيتها. بدا جلوسها على بساطته، مرتبًا له من قبل.

لم يمضِ على دخولها منزلي دقائق قليلة، وكانت تبدو لمن يراها، وكأنما تعيش في منزلها. طلبتُ منها أن تنتظرني ريثما أعدُّ القهوة لكلينا، ثم تابعتُ التجول في البيت، من غير إرادة مني شعرت بأن عليَّ أن أرتب بعضًا من الفوضى التي كنت أدَّعي أنها لا تحرجني. شعرت بأن وحدتي انكشفت. رميتُ الثياب المتسخة في السلة، ودفعتها بقدمي من طريقي إلى المطبخ. شعرت بأن لين لمست ما أصابني من ارتباك، وقد نهضت من مكانها ولحقت بي إلى المطبخ، ثم جلست على الكرسي قرب النافذة التي تطلُّ على الفناء الخلفي للبناء.

تراءى لي من حيث جلست أنها فتاة ضائعة. وكنت ارتبكت عندما دخلتِ المطبخ الضيق، وحاولتُ الإسراع في إعداد القهوة. ثم وجدتها تقترب مني وتجاورني وتجتازني لتختار من بين الفناجين، فنجانين لنا. أخذتْ لنفسها فنجانًا عليه وردات زهرية وبيضاء، وتركت لي فنجانًا عليه دوائر متداخلة بتدرجات الأزرق. ثم عادت ومرت بجواري، فيما كنت أحاول التركيز بالركوة التي بين يدي. وتجاوزتني مجددًا في طريقها إلى الشرفة، حيث جلسنا.

كنت أتجنب الجلوس على الشرفة، كي أتجنب الشعور بغياب صفاء. لكنني لم أعترض على اقتراح لين. وهكذا، جلستُ بصورة لم أكن أتوقعها مع ضيفة لم أكن أتوقعها في أكثر أماكن المنزل خصوصية بالنسبة إليَّ. وبدا غريبًا بالنسبة إلى فتاة بدت هاربة أن تختار الشرفة للجلوس. لكن تأكد لي وأنا أراقب شرودها في حديقة الفناء الخلفي حيث تصل أشجار الحور إلى الشرفة، أنها كانت تحتاج إلى الراحة. ولولا أني لمست في داخلها رفضًا للتكلف، لما دخلتُ

لأتابع الأعمال المنزلية قبل الذهاب إلى عملي. كان مشهدها وهي صامتة تشرب القهوة، وتتأمل الأشجار؛ صورة من صور الحياة التي أفتقدها، وقد أردتها لشدة جمال مشهدها أن تبقى جالسة هناك ومن ورائها أشجار الحور.

أخبرتها ألا تشغل بالها باليمام الذي بدا أننا قطعنا عليه إقامته في الشرفة المهجورة بين أصص الورد، وعدا حديثي عن البناء والجيران، بقينا صامتين. خلال الوقت الذي أمضيناه معًا تجنَّب كلٌّ منا السؤال عن شؤون الآخر. ثم بحدود العاشرة صباحًا دخلتُ المنزل، وأخذت أتحضَّر للخروج. بحدود العاشرة والربع كنت جاهزًا. دخلتُ المطبخ مجددًا، تأملتُ جلوسها على الشرفة، بدا أنها لن تتحرك من مكانها. أخالُ أن عينيها كانتا خاليتين. لكنني لم أكن أراهما.

ببساطة، لم أُرِد أن أتركها. وخلال ربع الساعة التالي، أعددت إفطار شخص واحد، كان هي، ثم توجهت إليها بكلمات قليلة عن الطعام الذي أعددته، خجلًا من تواضع مطبخ الرجل الذي عاد عازبًا. ثم وضعت الغسيل في الغسالة، وأخبرتها عن موعد الكهرباء والماء، طلبت منها الانتباه إليهما. لكن ما لبثتُ أن اعتذرتُ عن طلبي. خصوصًا مع بقائها صامتة. وقبل أن أخرج من المطبخ أخبرتها عن مشكلة السخّان في حال أرادت أن تستحم. كنت أخرج من المطبخ وأعود لأخبرها تفصيلًا بلا أهمية عن المنزل. حتى قاربت الساعة الحادية عشرة، أخبرتها أخيرًا أنها ليست مضطرة إلى فتح الباب لأحد، وتستطيع التصرف براحتها.

وعن الشعور الذي كان يلحُّ عليَّ بضراوة من غير أن أقوى على

تحديده؛ فهو رجائي ألا تغادر في أثناء وجودي خارج المنزل. لم أقوَ على أن أطلب هذا منها. رجوتها أن تكون مرتاحة في المنزل، وتركت لها المفتاح على الطاولة من غير أن أخبرها عنه، فقط اكتفيتُ برؤيتها لي أترك المفتاح. وقبل أن أغادر، وجدتها تنهض عن الكرسي، وتتبعني إلى الصالون، فالردهة. ثم قالت لي: «شكرًا». أسندتْ جسدها إلى الجدار، وقالت لي: «مع السلامة».

* * *

لا أذكر أنها قالت شيئًا عن انتظارها عودتي. وسرعان ما فكرتُ في احتمال أن تغادر في أثناء غيابي. كان الهاتف الأرضي مفصولًا بسبب كسلي في متابعة شؤون المنزل. كما انتبهت إلى أني لم آخذ رقم هاتفها فيما كنت أمسك الموبايل بيدي، وأتجاهل اتصالًا مجهولًا من رقم أيقظني في الصباح الباكر، كما لو أنه بشارة عن موت أحدهم. لكن لم أكن في مزاج يتيح لي استقبال اتصال من رقم مجهول. وهكذا، تجاهلت الاتصال للمرة الثانية، وبقيت أفكر بلين وأستعيد ارتباكها وهي تسير ورائي إلى باب المنزل، وأخال أنني ما إن أغلقتُ الباب ورائي حتى تهاوت على الكرسي قرب الباب.

بعد أن تركتُ لين، وجدت نفسي في الشارع، أخذتُ التاكسي إلى مكان عملي في حي الأميركان. لكنني نزلت قبل أن أصل إلى المكتب، وقد شعرت بحاجتي إلى السير والاختلاء بنفسي مع أنني لا أفعل شيئًا آخر منذ سنوات.

بدأت أسير باتجاه كنيسة مار مخايل. وسرعان ما بدأت أغالب

رغبتي بالعودة إلى المنزل، والاستمرار في مراقبة لين. لكن عِوض ذلك، فكرت وأنا ما أزال في طريقي إلى العمل بأن أتأخَّر في العودة، كي أتيح لها وقتًا إضافيًّا تمضيه بمفردها. وقتًا كانت تحتاج إليه كي ترتب لحياتها، عَهْد الفتيات في مثل عمرها. وبقي السؤال يضرب داخل رأسي ضربًا عنيفًا؛ ما الذي دفعها إلى اللجوء إلى رجل لا تعرفه؟

كنت أحب السير في شوارع اللاذقية التي تعرف كيف تدفعك إلى غرامها. وفيما كنت أسير وأفكر بالفتاة التي تركتها في منزلي، وعلى مقربة من كنيسة مار مخايل؛ سمعتُ قداس جنازة يخرج من جدران الكنيسة. وعندما أصبحت بمحاذاة الكنيسة خرج مُشيِّعون. لم أنظر في وجوههم. وقد حاولت ما بوسعي تجاوزهم من غير أن ألتفت، لا لرهبة الموت. وإنما لم أشَأ أن أقطع تفكيري بالفتاة التي دخلت منزلي. وتفكيري بالسنوات التي انتبهت إلى عبورها من غير أن يتغير شيء في حياتي.

تجاوزت المُشيِّعين من غير أن أنظر باتجاههم البتَّة، حتى ربما بدوت أتحاشى النظر إليهم. وحاولت أن أُوسع خطواتي كي أتجاوز الجنازة بسرعة، لم آبه بأن أنظر إلى النعوة. كنت متخمًا بالموت حالي حالَ الجميع هنا. لكن بدا أن حواسي كانت متحفِّزة، وكأن ذلك الموت كان يعنيني. شعرتُ بهذا من غير أن أنظر إلى الجنازة. وخِلتُ الشعور الذي وصلني وأنا أتجاوز الجنازة؛ محاذاة الموت. لكن كنت ما أزال مأخوذًا بدخول لين إلى منزلي، ومتحفِّزًا من جرَّاء مراقبتها. ولا أستطيع التأكيد إن كان ما أثار حواسي، هو انسلال لين

من محاذاتي إلى الردهة، أو محاذاتي للموت قرب الكنيسة؛ كان الحب يصحو في داخلي مثل موهبة قديمة، وبدا لي الجُنَّاز الذي تجاوزني نشيدًا لانبعاث الحب.

مع خُفوت أصوات المُشيِّعين عدت أتذكر ليلة الأمس، حيث اجتمعنا في منزل يوسف لوداعه وزوجته، وكانا يرتبان للانتقال إلى أميركا بعد سبعة أعوام من تقديم طلب الهجرة. مضى قسط طويل من الحرب، وهما ينتظران أن يسافرا. كنت أشعر بأن لدى ريما شعورًا عميقًا بالاغتراب. فيما أجبر العملُ يوسف على أن يكون واقعيًّا. تذكرتْ ريما صفاء عندما رأتني أقف بمفردي بين المجتمِعين، وشعرتُ بصدق شعورها تجاهنا. ثم جاءت لين ووقفت إلى جواري، كانت بمفردها. وبينما كنت أساعد ريما في ترتيب المشروبات، وجدت نفسي قرب فتاة جميلة. بدا أني بدأتُ أتأتئ بالكلام. وأخذت أنادي يوسف كي يساعدنا. كنت محرجًا. كنت أتحاشى قرب لين. لكن لا أستطيع التأكيد، فبعد أن جاء يوسف وأخذ المهمة عني بمساعدة ريما، بقيتُ منجذبًا إلى لين.

كان منزل يوسف من المنازل التي يحب المرء سكناها؛ لاتساع أركانه، وللمدى المفتوح على البحر. بدا اجتماعنا لوداعهما مناسبة حزينة. على الأقل بالنسبة إليَّ. الجميع كانوا سعداء لاقتراب سفرهما. وصار السفرُ الحديثَ المشترك في جميع منازل المدينة. وكان السفر يشغلني، أنا نفسي، من أجل ضمان حياة أفضل لابني، قبل أن تأخذ صفاء القرار نيابةً عني.

في منزل يوسف، كان الجميع مبتهجًا. جئت بمفردي مثل لين.

وقد تحدث يوسف بطريقة بدا معها كأنه يُلقي أحدنا إلى الآخر، على طريقته في تقريب الآخرين بصورة متحايلة. سمِعه كلانا يقول للين فيما يشير إليَّ:

- أعزب في الأربعين. عريس لقطة.

رافق كلماته الساخرة شيء من الغيرة. استطعتُ التقاطها. ولكنني لم أشغل نفسي به آنذاك، بل تأملتُ وجه الفتاة التي أربكها تلميحه المباشر. وشعرت بنفسي آخذها من مرفقها بعيدًا عنه. وتوجهت بكلماتي إلى ريما مازحًا:

- زوجكِ لا يترك أحدًا في حاله.

استطعت أن أسرق لحظة وأنظر إلى لين، التي بدا أن كلمات يوسف تركت في نفسها شعورًا سلبيًّا. وتراءت لي فكرة أن عليَّ الإسراع بالابتعاد بها. شعرتُ بأن هذه الفتاة مسؤوليتي. وقد جرح يوسف أنوثتها بمزاحه. سرعان ما تفهمت هذا. رافقت لين إلى الشرفة، تركتها هناك. أحضرتُ كأسَي ويسكي، وشربناهما شاردين في أضواء الميناء.

كانت لين شاردة، ولمست لديها شيئًا من الحزن الذي أعتبر نفسي خبيرًا في شؤونه. لكن لا أعرف ما الذي كان يشغلها. كان حضورها خفيفًا. وقد أمسكتْ في لحظة غير واعية ساعدي الأيمن، ومالت إلى كتفي. لا أعرف إن كان سلوكها لفرط حزنها ووحدتها، أم بسبب أثر المشروب. كانت أنثى أكثر رقة من الكلمات. ربما لهذا بقيتُ صامتًا، وكان على يوسف أن يختار كلماته بعناية معها. شعرت بأني أبغض مباشرته في الحديث. أو ربما قصد أن يجرحها.

كانت تخفي أمرًا تضيق به؛ بل وأنا أرى اضطراب تنفسها، شعرت بأن هناك ثقلًا يجثم فوق صدرها، وربما رقتها منعت عليها التعبير عن الضيق الذي ألمَّ بها.

البارحة، أمسكتْ لين بالدرابزين على الشرفة، ودفعت جسدها إلى الأمام والأعلى. وسرعان ما جعلتُ جسدينا يتقاربان بعد أن خشيت لشدة اضطرابها أن ترمي بنفسها إلى الشارع. بدا أنها تبالغ في محاولة كتم تأثرها. شعرتُ بها وهي تمسك بالدرابزين، وترفع جسدها إلى الأعلى تطلب المزيد من الهواء. لم يكن ما يتعب لين شعورها بلحظات الوداع. ولم أجد مناصًا من التفكير بالفتاة التي إلى جواري على أنها تشهد أزمة من نوع عصي عليَّ تفكيكه، بما أعرفه عنها. لكن مع جهلي، لم أستطع الابتعاد عنها. ولا أعرف إن كان لائقًا التفكير أني انتبهت إلى أناقتها، وهي مقبلة على عذاب غامض. ظهر عذابها جزءًا من أناقتها. لم تكن هيئتها متكلفة. وقد خِلت ذلك بسبب سنها. ولو أن فستانها المكشوف عند الكتفين على نحو محافظ، منحها إطلالة سيدة في الثلاثين. مكياجها كان بسيطًا، وقد وضعته بنفسها. فيما القلادة بلون الزمرد كانت تعطيها بريقًا. خِلت معه أنها نجمة. حاولت أن أقول لها أمرًا عن جمالها. لكنني أحجمت عن القول.

فيما كنت شاردًا بحالها، وأتأمل جمالها؛ تذكرتُ أني اجتمعت معها قبل هذا اليوم، فهي صديقة صفاء. لكننا لم نتحدث بصورة مباشرة في المرات التي اجتمعنا بها. حتى في حفل وداع يوسف، وأنا أقف إلى جوارها على الشرفة، لم نكن نتحدث. كنت أشعر

بها قريبة مني. لكنني وأنا أتردد على عادتي في الاقتراب من النساء، أخذتُ أنظر إليها... بابتعادها عن الدرابزين، ابتعدتُ عنها، وأتاح لي الابتعاد رؤيتها ضمن مشهد الليل. حاولت بدء حديث معها. ولم أجد كي أشغلها عن ألمها الغامض أمامي ما أقوله سوى حديث يشبه البوح:

- كلما غادر أحد أصدقائي اللاذقية، ازددت تعلقًا بهذه المدينة. الوداع يتحول في داخلي ليصير عطفًا على اللاذقية يمنع عني مغادرتها.

لم تحرك كلماتي أي فضول لديها، حاولتُ الانتقال بالحديث إلى أمور أكثر خصوصية:

- أخال أن الرجل الذي يحب مدينة واحدة، يحب امرأة واحدة. أحيانًا أخاف هذا الخاطر، وأحيانًا أتصالح معه. أحيانًا أفكر في المغادرة كي أرى الدنيا. ولكنني بهذا أغامر بحب المرأة التي التصقت بالمدينة في مخيلتي. أشعر بأني أضعف من أن أغادر.

نظرت نحوي، وكأنما حديثي زاد من شعورها بالضيق. قررت أن أصمت من فوري. لكنها قالت بشيء من الصدق:

- أنت تعذب نفسك بهذه الخواطر الواهمة. الحياة أبسط مما تقوله. لماذا لا تعيش فعلًا عِوض التفكير في العيش وترقُّب احتمالاته؟ لماذا لا تعيش، ببساطة، خارج أفكارك؟

بدا ما إن أشاحت بنظراتها عني، أنها لا تنتظر إجابة. وشعرت بأنها تعرفني. وربما أغامر بالقول، إنها تشفق عليَّ. حاولتُ تذكر عدد المرات التي التقيتها فيها. ربما كانت أكثر من زميلة بالنسبة إلى

زوجتي السابقة. فكرت وأنا أستدعي هذا الاحتمال أن أفضل طريقة لأعرف مدى معرفة لين بي، أن أتركها تتحدث. إلا أنها كانت محجِمة عن الحديث. فسألتها بقصد أن أستفزها:

- ربما تكون خواطر واهمة. لكن جميعنا نحتاج إلى وهمٍ ما، كي نستمر. وأنا اخترت وَهْم أن اللاذقية أجمل مدينة في الدُّنيا.

لكنني أحجمت عن الحديث عن امرأة غيرها، كي لا تفهم حديثي إساءةً لجمالها. وما قلته لها بعد وَهْم الاستمرار لم يَعنِ لها شيئًا. أعقبتْ بكلمات أشارت لي بوضوح أني أمام فتاة لها تجربتها:

- ولو أن الرجل في الأربعين يحتاج إلى من يعيد عليه أفكاره ذاتها. لكن اسمح لي أن أخبرك بأن من حق أحدنا أن يتوقف في لحظة من حياته عن الرغبة بالاستمرار. وأن يتوقف عن إلهاء نفسه بالأوهام. وإذا أردتَ، من حق الحياة عليك أن تترك لها فرصة في أن تفاجئك.

رأيتُ نفسي أمام فتاة تعرف يأسها، وتتحدث إليَّ من أعماق ذلك اليأس. الأمر الذي فتنني. تسربت ابتسامة إلى شفتَي، بفعل كلماتها التي ترجمتها في داخلي على نحو مبهج يحمل نسائم بداية العلاقات العاطفية. بدأت أقول لنفسي على عادتي: «اسمعني. هذه هي البنت التي تنتظرها. اسمعني. لا تضيِّعها. حاول الخروج من منطقة الأمان التي اعتدت عليها. الفرصة جاءت».

بالفعل رأيتها فرصة، لا مجرد امرأة. فرصة كي أخرج من ذاتي. لا أعرف كيف كان وَقْع ابتسامتي المفاجئة على لين. لكن يأسها جعلني أقترب منها، وأمسكها من مرفقها على نحو أوضح مما خرجنا به إلى

الشرفة، وأدعوها إلى الانضمام إلى الساهرين في الداخل. لكنها قالت لي بعذوبة لا تقاوَم:

– لو نبقى هنا...

ومن ثم أعقبتْ بعد لحظات صمت:

– لو تشاء تستطيع الانضمام إليهم. لكن سأبقى هنا.

لم أترك مرفقها. وعِوض أن أدفعها إلى الداخل، وجدتُ نفسي أقترب منها، ومن ثم أحرف جسدها باتجاه الدرابزين مجددًا. حيث عدنا لتأمل الليل صامتين. شعرت بأن الأزمة التي تعصف بها مرتبطة بما يحدث في الداخل. ربما مع يوسف نفسه. لكن لا أستطيع التأكيد. وبقينا كلٌّ مشغول بعالمه عن الآخر. أيضًا نحَّانا المجتمِعون. كانوا فرحين بفرصة الهجرة. الأمر الذي انتظره يوسف لسنوات. وخلال الانتظار ازدادت ضراوة الحرب، التي ما إن يشهدها المرء حتى ترافقه مدى حياته. إذ يجد البشر أنفسهم مضطرين إلى التعامل مع الحرب على أنها ندبة لن تفارقهم. بالنسبة إليَّ، فقد استطاع الخراب الذي أحاط بنا أن يهدم علاقتي مع صفاء، التي لا أتذكر أني أخبرتها ولو جملة واحدة عن مرار غيابها. بات غيابها أمرًا يعنيني بمفردي. وربما حبي لها منذ البدء لم يكن أكثر من أمر يعنيني أنا. يمثلني وحدي من الداخل، من أعماقي.

كانت لين شاردة في ملكوت الحزن. وبسبب صغر سنها، ترك الحزن عليها علامات إنسان على وشك أن يبكي. تهيأ لي أن شفتيها ترتجفان، وعينيها تحبسان الدموع، وارتعاشًا باردًا يسري في مسامها. وكانت تجربتي مع صفاء تعود إليَّ من غير قدرة على مقاومتها. بدأتُ

أتذكر كلماتها عن ترددي الدائم، وعن ارتباكي بحضور النساء. فكرت أن أبدأ حديثًا مع لين، تُسَيرني رغبة بأن أُثبت لنفسي القدرة على تخطي أزمة الانفصال مع ما سبَّبه من خراب يعيش في داخلي وقلة ثقة. أخبرتُ لين شيئًا عني:

- تعرفين، منذ اعتيادي العيش وحيدًا، وأنا أشعر بأن البشر متعِبون. لولا أن أميركا بلد بعيد، لما جئتُ لوداع يوسف وريما.

لم تنجح كلماتي في انتزاعها من شرودها. لكن ما إن بدأت الحديث، لم أجد مناصًا من متابعته:

- عندما يرحل الأصدقاء من هنا، يتركون لديَّ انطباعًا أنهم أصبحوا في بُعد آخر. في زمن آخر. أو أنهم ماتوا. وأعرف ما إن يسافر يوسف فسينقطع شيء بيننا. لا أزال أرى رحيل الأصدقاء، يشبه موتهم، إنه حدثٌ عدواني في حياة من يبقى. وأنا أفترض موتهم، كي أستطيع التصالح مع غيابهم.

لم تستطع لين أن تخفي السحر الذي تركتْه مفردةُ «الموت» بين كلماتي الأليفة كالصداقة والزمن والنسيان. كما لا أستطيع أن أنكر، على الأقل أمام نفسي، أن عينيها أشرقتا ما إن تحدثتُ عن الموت. لكن بقي هذا الانطباع لديَّ، احتفظتُ به لنفسي، ولم أبُح به لأحد حتى بعد وقوع الجريمة.

كنت أريد لها أن تخرج من شرودها. خصوصًا أن أصوات الضحكات وضجة الكؤوس كانت تصلنا من الداخل. الضحكات صارت عالية، ويمكن أن تدفع إنسانًا مكتئبًا إلى أن يقوم بجريمة قتل. حاولت ما بوسعي أن أتخفف من ثقل أحزاني، وقلت للين بنبرة مرحة:

- اسمعي. لمَ لا ننضم إلى الأصدقاء؟

- أمقت أجواء الوداع.

ران صمت للحظات بيننا، لم أعرف بماذا أُقنعها. بدا أنها تريد أن تتركني قريبًا منها. لكنها كانت متعَبة. تابعتْ حديثها:

- أمضيتُ جزءًا من حياتي في وداع الآخرين. ما أزال في منتصف العشرينيات وجميع أصدقائي سافروا. والآن يوسف... وريما.

لم تكن المسألة في أني شديد الانتباه. لكنها بالفعل ذكرت اسم يوسف، توقفتْ للحظة، ثم كما لو أنها تتدارك خطأ، أردفت اسم ريما. شيئًا فشيئًا نجحت لين في أن تجعلني أتعاطف معها، مع جهلي بطبيعة حزنها. وربما كانت هذه إحدى مواهب النساء. لم تشغلني هذه المسألة آنذاك. كنت مفتونًا ببراءة حزنها، وقليلًا ما يلتقي المرء بأحد يَظهر على تعابيره شعوره الحقيقي. أظنها بريئة بالفعل. وبدا أنها تحاملت على نفسها حتى جاءت، كحالي.

كنت أؤمن بالمساحات الجانبية التي يلتقي بها البشر على أطراف حدث كبير. أو في سهرة عابرة. لم أكن مع لين غرباء إلى هذا الحد، أنا أعرفها، وقد بدوت وإياها من مذهب مختلف عن المجتمِعين، يمكن أن ينتمي إلينا والد يوسف أيضًا. ثم فجأة وأنا شارد. سمعتها تقول لي:

- أنت كثير الشرود. لك عالمك.

وخِلت أنها عاتبة عليَّ. استأتُ من نفسي، قبل أن تكمل حديثها:

- رفقتك مريحة. وأتفق معك. فعلًا، الناس متعِبون.

لم أجد ضرورة لأن أخفي ابتسامتي. لكن خلف ابتسامتي، كنت

أخفي إحدى الحقائق التي تخصني. وهي أني حققت نجاحًا طفيفًا في وجه أزمة انفصالي. كان نجاحي خجولًا ومربكًا. كان لنا قُرابة الساعة معًا على الشرفة؛ شخصان اتفقا على أن البشر متعِبون. وفي النهاية، قرر أحدهما أن ينضم إلى الساهرين، والآخر لم يمانع.

* * *

في الداخل بدأت تحاول مرتبكة، مداراة حزنها. أخذت لين ركنًا قصيًّا عن الجالسين. تبعتُها، وجلست على مقربة منها. كان بيننا مسافة تكفي لعبور شخص. وأمامنا مكشوف جزء من الصالون الذي ينتهي إلى الشرفة. إلى جانبي كان يجلس والد يوسف، وكان رجلًا في العقد الثامن. حاولت أن أبقى بقربه، فهو قاصر عن فهم ما يجري من حوله مع معاناته من الشيخوخة. أخذتُ أنقل ناظرَي بين والد يوسف الذي كان يرتدي بيجاما عادية، إلى درجة تأكد لي أنه لا يعرف سبب الدعوة، وبين والدة ريما التي كانت في مقابلي، وجمالها متناسب مع عمرها. أخذت أمسح وجوه الحاضرين بناظرَي، وأعود لرؤية لين تراقب مِثلي. وكلٌّ منا يبتسم في وجه الآخرين من غير كلمات. جميعنا كان لديه الشعور بأنه كان عليه الاعتذار عن المجيء.

جاءت ريما، وجلست إلى جواري. لمحتُ كم هي متأثرة من غير أن تقول شيئًا. تركتْ يدها على كف يدي، وهي تنهض معتذرة للجلوس مع الآخرين. لاحقتها بعينَي. رأيتها تجلس إلى جوار لين، ازدادت الدمعتان اللتان تشعر بأنهما حاضرتان دائمًا في عينَي لين، حضورًا. لكنها لم تبكِ. وتهيأ لي من تأثُّر لين أن صلة غامضة تجمعها

مع ريما. داخَلني الشعور أننا يتامى. فجأة أصبحنا من غير مستقبل. سفر صفاء مع نور خفف من مخاوفي. على الأقل. أنا مطمئن حيال حياة ابني.

بين فكرة وأخرى كنت أنظر إلى لين. فأراها إما تداري ارتباكها وإما تنظر إليَّ. وبقي لديَّ شعور بأنها تستخدمني كي تتغافل عن الآخرين. تأكد لي أنها تتغافل عن يوسف بصورة خاصة. كذلك يوسف لم يبدُ مرتاحًا عندما جاء إلى الركن الذي نجلس فيه مع والده. وأخذ يتجنب النظر إلى لين بصورة قهرية. شعرت بشيء مما كان يحدث مع كلٍّ من ريما ولين ويوسف. لكن حقيقة ما يجمع الثلاثة؛ بقي مستغلَقًا على الفهم. لا أستطيع التأكيد. وربما حساسيتي لا تصلح لقراءة العلاقات. الجميع كان متأثرًا بالوداع. وفيما كان يوسف يغالب عبراته أمام والده، تَشكَّل لديَّ انطباع أني لن أراه مجددًا. كنت متأكدًا. الأمر الذي لم أشعر به بينما كانت ريما تضع يدها على كفي، وتخبرني أنها سوف تفتقدني. قبل أن تدقق بعبارتها وتقول إنها «ستفتقد صداقتنا».

تأملتُ الركن الذي نجلس فيه، أنا ولين ووالد يوسف. وشعرت بأن على ثلاثتنا أن نغادر السهرة. نظرتُ إلى لين، ورأيت في عينيها تأهبًا. اقتربت منها. سألتها في صيغة أشبه بالطلب:

- دعيني أوصلك في طريقي.

- ولو تساعدني على الاعتذار والخروج.

كانت محرَجة مثلي. لم تكن الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة بقليل، عندما قررنا الاعتذار والخروج. وكنا لتوِّنا قد أنهينا العشاء

الذي أعدته ريما بنفسها. ربتُّ على ساعد يوسف بخفة، تجنبت دراما أن أضمَّه. شعرت بأني كنت عرَّابه دائمًا. لم أضم يوسف. فيما ضممتُ ريما مودعًا. وسبقتُ لين إلى الخارج، تاركًا لها الحرية في وداع الأصدقاء. أخبرتها أني أنتظرها في الأسفل. ونزلت الأدراج متعجلًا، انتظرتُها في مدخل البناء، ولم تتأخر في اللحاق بي.

وفي ليل اللاذقية النشوان، دخلنا زقاقًا يقودنا إلى الكورنيش الغربي، سِرنا معًا حتى وصلنا إلى المنارة. وفي الطريق تحدثنا بطلاقة. وفوجئتُ من أن صفاء كانت تطلب منها الانتظار برفقة نور في المنزل. وعقَّبت لين على عدم معرفتي بهذا التفصيل تعقيبًا جعلني أدرك أنها تعرف الكثير عني وعن علاقتي مع صفاء:

- كنتَ بعيدًا عن صفاء. لك عالمك. انفصالكما لم يفاجئني. حتى إني قلتُ لريما عندها؛ وأخيرًا فعلها أحدهما.

هنا وجدتُ ما أقوله ولو أني قلته بنبرة دفاعية:

- صفاء هي التي قررت. هي التي تركتني.

- هذا ما تقوله أنت. لكن في الحقيقة؛ كان لك ثلثا الخاطر. الارتباط بها كان يتعبك. كنتما مختلفين. لك عالمك.

كنت مكشوفًا للين بقدرٍ شعرت بأني يمكن أن أحبها. وربما أثقلت في المشروب. لم يكن ذلك الانطباع عقلانيًّا. وجدت نفسي أدعوها إلى متابعة السهرة في منزلي. لكنها اعتذرت، واتفقنا على ترتيب لقاء في الأيام القادمة. ثم افترقنا. دخلت لين زقاقًا يقودها إلى الغرفة التي تسكنها في المارتقلا، وتابعتُ السير إلى منزلي قرب حديقة الأندلس.

في مساء الأمس أصرَّت لين على أن لي عالمي، إصرارًا أشعرني بالضيق. وقد وصلني شعور ثقيل بالحزن، مترافقًا مع رغبة قوية بالتحرُّر من شكل حياتي، من جراء وصف يوسف لي بالأعزب. وكأن سنوات العيش مع طيف طليقتي، توشك على الانتهاء. وكأنما؛ الآن تبدأ حياتي.

لين

لم أحتمل البقاء بمفردي. كان شعوري بالوحدة مضنيًا. مع أنني كنت معتادة على أداء دور العاشقة التي تبقى في الظل، وأصبحت أجده دورًا مريحًا بالنسبة إلى فتاة مثلي ترهقها مسؤولية الزواج. لكن قرار يوسف بالسفر برفقة ريما بدا خديعةً؛ وكنت أتقبَّل فكرة موته، أكثر مما أتقبَّل فكرة سفره معها.

وجود إياس إلى جانبي في أثناء العشاء خفف عني ثقل الوداع. وشعرت ما إن تركته على مقربة من المنارة، بحاجتي إلى الآخرين. لم أشَأ أن أعود إلى الغرفة التي أسكن فيها على مقربة من كنيسة مار تقلا. بعد خطوات قطعتها بمفردي، شعرت بأني متخَمة بوحدتي. وكنت قادرة على التخلي عن أوهامي بحاجتي إلى العيش منفصلة عن أمي وأبي. لكن لم يَعُد لديَّ طاقة على خداع نفسي. ولم أشعر بوجود مرار يفوق مرار الوقوف مقابل البناء، حيث أعيش بمفردي. حتى إنني وأنا أراقب العتمة داخل البناء، أدركتُ أن داخلي أصبح معتمًا.

خاب رجائي. دائمًا أجد الأخريات أمامي في واجهة العلاقات.

ربما عدم تسرُّعي بالتفكير بالزواج، وعدم إعطاء الارتباط أولوية، جعلاني أظهر متساهلة في علاقاتي. أنا فتاة عادية. وفضلتُ العيش في الظل، لا أريد أن أدَّعي دور الضحية. تضاءلت آمالي، كما تضاءلت صورتي أمام نفسي. لم أكن فتاة تندب حظها. كنت أحب أن أعيش بلا تعقيدات. وما أشعر به، كنت أسعى إلى تحققه. لكن جمال هيئتي ترك في داخلي شعورًا مريرًا بالوحشة. ما إن غادرني إياس حتى شعرت بأني مستاءة من وحدتي، لا من إياس، ولو أن في ضعفه الذي يصدره عن نفسه مسوِّغًا لمن يعرف حقيقة صلابته؛ كي يستاء منه. لكنني لم أستَأ لأنه تركني من غير أن يقترح إيصالي إلى سكني. إذ أعرف ارتباكه تجاه النساء. كنت مستاءة من وحدته بقدر ما كنت مستاءة من وحدتي.

وبقيت أتساءل؛ لماذا يمضي البشر أيامهم وحيدين بهذه الصورة؟

العالم زائف، ولا فائدة من الجدال في حقيقته. إما أن تقبل الآخرين أو ترفضهم. إما أن تقبل دورك في حياة الآخرين، أو ترفضه. وهكذا، قررت ألا أصعد إلى غرفتي، ومضيت عائدة باتجاه منزل يوسف، كانت وحدتي هي ما يؤرقني. لم أقصد العودة إلى السهرة التي غادرتها. لكنني فكرت بالسير في شوارع اللاذقية التي شعرت بأنني أشبهها مع أنوثتي الجريحة. وشعرت بعد خطوات قليلة باتجاه الكورنيش بأنني أندغم مع الليل، أندغم داخل الليل، والآخرون لا يرونني، وهذا شعور دافئ بالنسبة إلى إنسان حزين متألم.

أعاقني الدفء الذي أقابَل به في اللاذقية عن التفكير بالسفر، والألفة التي أراها تسير بين الناس، وتجلس معهم. ولولا شعور

الوحدة الذي يعقص روحي من الداخل لما كنت أحسد أحدًا على حياته. أنا مَن قبِلت أن أكون في حياة رجل متزوج، لي أسبابي، كنت مرتاحة، وكان يترك لي الحرية في أن أكون مع سواه. لست فتاة رخيصة. لم أقصد الإيحاء بهذا. وإنما استسلمت بصورة مبكرة إلى فكرة مفادها أننا مؤقَّتون في حياة بعضنا؛ حتى العلاقات الطويلة تنتهي بموت أحد الشركاء. حوادث الموت الجماعي فقط تشذ عن الفراق المحتوم بين المحبين. في النهاية رأيت أن على الجميع أن يجرب الوحدة في وقت من أوقات حياته. وساعدتني قناعتي هذه على عيش الكثير من اللحظات الحقيقية التي أزعم أن المأخوذين بفكرة الأبد لم يعيشوها.

وجدت نفسي أعود إلى الكورنيش الغربي، كان الجو نديًّا، ما جعلني أشعر بالانتعاش. وكنت أظن نفسي وأنا أراقب الأعمدة الحجرية التي تفصل المشاة عن الميناء، أني أتهدم من فرط حزني وفرط إدراكي للهشاشة في داخلي.

أخذتني الشوارع باتجاه الحي الذي يسكن فيه يوسف. وكنت أغالب رغبةً لوداعه وداعًا يليق بما جمع بيننا. عِوض أن تبقى الصورة الأخيرة التي أراه فيها على عجالة الوداع، يقف إلى جوار إياس عند الباب، ينظر نحوي وفي عينيه حيرة. ثم سرعان ما يعود لينظر في خلاء السلالم. وحتى اللحظات الأخيرة حفظ يوسف ميثاق عمر بن أبي ربيعة بيننا؛ في التظاهر وتجنب النظر إليَّ. وكان قد أهداني القصيدة التي غنتها فيروز في مواقف عديدة. من أحبني كان مكتوبًا عليه أن يتجاهلني. لكن أكثر ما رغبت به في لحظة

الوداع أن ينظر يوسف إليَّ أمام الجميع. أردت نوعًا من الاعتراف. وبقيت حتى النهاية، أقف في الزاوية المنسية مثل إناء مكسور. أردد مقهورة بيني وبين نفسي:

إذا جِئتَ فامنَح طَرفَ عَينيكَ غَيرَنا

كي يَحسبوا أن الهَوى حَيثُ تَنظرُ

وهذا آلمني. وكان يمكن لمن يراني أسيرُ وفي خاطري هذه الأفكار أن يعتقدني سكرانة. لكنني كنت فتاة تسوؤها الوحدة، وخديعة المحبوب. وكان يمكن أن أرقص عندما وصلتُ زاويةً اعتاد روَّادها سماع أم كلثوم ليلًا. لكنني لم أبالغ في الحالة التي كانت تجرفني. ربما أثقلتُ في شرب الويسكي، وربما ظهر شيء مما كان يجول في خاطري على نظراتي أو على حركتي. لست متأكدة. لكنني بعد مسافة قصيرة صادفت زملاء يوسف في العمل، وشعرت بأن حالي أقلقهم. اقترب مني أحدهم، وقد تبدَّى لي طوله عندما وجد نفسه مضطرًّا إلى الانحناء كي يسألني:

- هل تحتاجين إلى مساعدة؟

بدا أني إلى جانب حالي المشوَّشة، نهرته بطريقة ما. إذ ابتعد عني بصورة بدا لي أيضًا أنه لم يكن متأكدًا إن كنت الفتاةَ التي كانوا يسهرون معها قبل قليل. وبررت له نفوري من انحنائه إليَّ واقترابه مني:

- نسيتُ مفاتيح غرفتي في منزل يوسف. ومضطرة لأن أسرع. كي لا أُقلق نومهم.

وقد كذبتُ. ربما بان عليَّ الكذب. سرعان ما ابتعدت من جوار الشاب. وسرعان ما ظهرت هاربة من أمر ما، وكنت هاربة إلى قدري.

تابعت طريقي باتجاه منزل يوسف في زقاق يصل البنك المركزي مع مديرية البريد. وعند المفترق الذي يأخذني إلى حيث منزل يوسف. رأيتُ سيارة إسعاف تسبقني في الطريق ذاته. توقفت ما إن رأيتها، وفكرت أن أعود أدراجي إلى الكورنيش. لكني دخلت السوبر ماركت، وطلبت ماءً. شعرت بأني عطشانة، ربما بسبب الويسكي. كان حلقي جافًّا. كنت خائفة من أن يراني يوسف أو ريما. ومن غير مبرر تراجعتُ عن مواصلة السير إلى منزلهما. شعرت بأني أحيدُ عن مصيري. مع ذلك، أخرجت الموبايل، وضغطت على اسم «يوسف» في قائمة الأسماء لديَّ. لكنني أنهيت المكالمة، وربما لم تخرج المكالمة من هاتفي. في لحظة، شعرت بأن شكل الوداع لم يَعُد مهمًّا. صحيح أني كنت أحتاج إلى لحظة وداع صادقة تجمعني به، كي أستطيع التعامل معه باعتباره جزءًا من الماضي. لكنني في الوقت نفسه، وأنا أعود إلى الكورنيش بينما أسابق النسائم الباردة القادمة من البحر تتلاعب بشعري؛ أدركتُ أني لا أريد رؤية يوسف مجددًا.

في لحظة ترددي وأنا أرى سيارة الإسعاف تسبقني في الزقاق نفسه، شعرت بأن بمقدوري أن أعود حرة من غير ارتباط مع أحد. وحاولت جاهدة أن أكبت رغبة الانتقام من يوسف، بسبب خديعته لي. ووددت أن أنتقم من نفسي، لا منه. صحيح أني لم أكن خلال علاقتي معه في ذلك النوع من العلاقات الذي يخنق الناس. ولكنني في النهاية كنت مقيَّدة إليه بخيط متين من العار. وكانت علاقات القوة والضعف التي ينسجها يوسف من حوله، تثيرني. أحببت أن أدور في

فَلك رجل يبدو قويًّا. وقد تعرفت إليه في إحدى زياراتي لريما، واقترح إيصالي بسيارته؛ وكانت ثقته بنفسه تمنحه جاذبية لا تخفى على الذين يتعاملون معه. إلى جانب هدوئه في الحديث وصوته الخفيض الذي يترك انطباعًا واثقًا. فقط عندما كان يضحك، كانت ضحكاته تُجبر مُحدِّثه على الضحك لشدتها. وأول ما سمعتُ ضحكه، وهو يقص لي موقفًا طريفًا حدث مع أحد زملائه في العمل، استغربت أن يكون لذلك الرجل الرصين الواثق تلك الضحكة الرنانة التي تشي بإنسان لا يكترث بالآخرين.

يمكن أن أقول بعد أن عرفته، إن لديه جانبًا متناقضًا بشدة يمكن معه أن أقول إني لم أعرفه بشكل كافٍ. لم أكن من غير تجربة. لكن تجربتي قبل أن أكون معه لم تكن كبيرة. قبِلتُ أشياء لم أكن لأقبلها مع غيره. في النهاية أطبق عليَّ الشعور بالعار بسبب وجودي في حياة رجل متزوج يُظهر حبه لزوجته، ويسافر معها أخيرًا.

بين فكرة وأخرى وجدت نفسي مجددًا على الكورنيش الغربي، وخطوة خطوة كنت أبتعد عن الحي الذي يسكن فيه يوسف، وعن ذكرياتي معه. ولأني أساسًا متعَبة من قصتنا، سرعان ما استسلمت لسفره، وبقيت الخديعة تضرب في وجداني. وقلت لنفسي، ربما تساعدني خطوة مباغِتة مثل سفره مع ريما، على التفكير برمي حكايتي الأليمة معه في جانب بعيد من ذاكرتي. لكن لم أكن قادرة على أن أمضي تلك الليلة بمفردي، كما لم تكن لديَّ خيارات كثيرة. وجدت نفسي مجددًا أقف أمام عتمة البناء، أدفع نفسي دفعًا كي أصعد إلى غرفتي، وأسدل على حكايتي ستار الليل. بدأتُ أدفع نفسي لأصعد

الأدراج، شعرت بأني أسكن أعلى من المعتاد. الحزن شاق. وألمُ أني تُرِكت من غير وداع؛ جعلني أشعر بأن قدمَي ثقيلتان.

وصلت الغرفة، وفتحتُ الباب وأنا أشعر بقسوة الخديعة. أخذ الليل يتقدم بينما ألوك ذكرياتي عن بداية تعارفي مع يوسف، وقبلها مع صفاء وريما اللتين أحبتاني حبًّا صادقًا، خصوصًا صفاء التي كانت تفتح لي قلبها، وتخبرني أسرار زوجها إياس. كنت مستمعة بارعة. إنني هاربة إلى حكايات الآخرين من كل تفاصيل حياتي، ومن ذكرياتي الأليمة عن العيش بين والدين لم يأبها، بالفعل، لوجودي في حياتهما.

أنا قادمة من عالم مشبع بحكايات الانفصال. الأمر الذي جعل مجرد التفكير بالارتباط ثقيلًا عليَّ. رميت نفسي إلى حكايات لا أملَ منها. ومع وعيي بذلك، كان الحزن يُثقل قلبي خلال تلك الليلة. وقد سيطرت عليَّ فكرة أني سأموت وحيدة. وأحد أكبر مخاوفي؛ أن يشم الجيران رائحة جثتي بعد أيام من موتي. هذا خاطر يرافق العجائز الذين تركهم أبناؤهم. وموت جدتي منذ عامين في إسطنبول بهذه الصورة، أرعبني. لا أخاف أن أعيش بمفردي، بمقدار خوفي أن أموت وحيدة، وهو خاطر غريب بالنسبة إلى فتاة في مقتبل عمرها، إلا أنه خوفي الخاص، ولا أجد حرجًا في التعبير عنه.

ربما بدافع سفر يوسف، قررتُ أن أنتفض على تلك الصورة لنفسي. وهكذا أشرقتْ مع بداية إشراق الشمس فكرةٌ في رأسي، وهي الذهاب إلى منزل إياس، وكنت أعرف من أحاديث صفاء عنه، أن الطريقة الوحيدة لدخول حياته، هي أن أفرض نفسي عليه.

غفوت لساعة أو ساعتين، لا أكثر. لأن أفكاري كانت ذاتها بعد أن استيقظت، كأنما النوم لم يردعني عن القرار بأن أرمي حياتي إلى أحد آخر، وهو إياس. نهضت من السرير، جهزت نفسي، لم أُزِل مكياج الليلة السابقة. لكنْ خرجت إلى الصباح في هيئة عادية. أوقفتُ سيارة الأجرة، أعطيته عنوان منزل إياس. وبعد دقائق كنت في الحديقة، أمام منزله. حيث توقفت لألتقط أنفاسي.

* * *

لم يفاجئني وأنا أنتظره وأتأمل محيط باب المنزل؛ احتفاظه بالدراجة الهوائية لنور. وفي الداخل، ما إن فتح لي الباب وأتاح لي حيزًا للعبور إلى الداخل، لم أُفاجأ برؤية ألعاب نور موزَّعة في الردهة. كان يمكن أن أتوقع أن شخصًا مثل إياس يعيش أجواءً نوستالجية. لكنني لم أتوقع أنه لا يزال يترك ألعاب طفله كما هي. وكأنني أدخل منزل صفاء قبل سنين، ما زال كل تفصيل في الردهة على حاله. حيث كانت صفاء تدفع بألعاب نور إلى الردهة لأنها كانت تشكو من جهة ضيق المنزل، ومن جهة أخرى كِبَر مساحة الردهة التي تقود إلى الصالون مباشرةً. حيث جلست هناك من فوري، ومن دون تبادل أي كلام مع إياس. وضعتُ رأسي بين كفَّي، وأخذت أتأمل حياة الرجل الذي لجأتُ إليه هروبًا من حياتي.

وقد فوجئت. لم أستطع أن أخفي انطباعي بالذهول. حتى إن كرة البحر ما زالت في مكانها مرميَّة أعلى المكتبة، وقد بدت عليها آثار عبور الزمن بعد أن تَسرَّب الهواء منها. ما أزال أذكر اليوم الذي أحضرها به نور، وكنت في زيارة لصفاء، عندما أخبرها ابنها محتجًّا

على تقتير الهدايا عنه، بسبب شغبه، بأن والده اشتراها له. كانت كرة كبيرة كما أتذكر. لكن وأنا أراها مركونة أعلى المكتبة شعرت بالحزن؛ بدا لي أن الكرة تضاءلت. الزمن يترك بصمته.

لم أكن أنا أو هو في مزاج للحديث. كلانا متعبان. شعرتُ بهذا في الأمس، الأمر الذي قادني إليه في الصباح. وبانشغاله عني ومواصلته ما كان يفعله، وهو يعدُّ القهوة، أتاح لي الوقت لاستيعاب وجودي في منزله. وهو بالنسبة إليَّ، رجل غريب، خاصة أنه لا يعرف بمعرفتي الكثير عنه. وأنا أرقب خروجه من المطبخ، جُلت بنظري في المكان الذي أجلس فيه. راعني بالفعل مرأى التفاصيل التي بقيت كما هي. حتى إن إياس ترك بعض الأشياء المرتبطة بصفاء ظاهرةً، مثل فرشاة شعرها وبعض إكسسوارها. بدا لي أنه ورث بعضًا من حياتها، وكأنما إما ينتظر عودتها أو لا يُصدِّق رحيلها.

شعرت بالضيق، وبأني متطفلة على حياته. وتساءلت أمام نفسي عن جدوى هروبي إليه. وكان يمكن لو تأخر أكثر في المطبخ أن يخرج ولا يراني في المنزل. أردت أن أغادر. شعرت بأني غبية، وبأن خطوتي باتجاهه بهذه الطريقة فيها شيء بريٌّ. بدأت أقضم أظافري، وشعرت للحظة بأني في مكان ليس لي. وقد ساعدني اقتراح إياس أن نشرب القهوة على الشرفة في ضبط سلوكي. وأظن بسبب السرعة التي أعدَّ بها القهوة، أنه لم يُضِف إليها ماءً. أظن أنه أعدَّ القهوة لشخصين، هو وذكرى زوجته.

ساءني الشعور بأني متطفلة على عالمه. كان شعوري ثقيلًا داخل منزله. وعندما أصبحنا على الشرفة أصبح شعوري أخف. أيضًا الهدوء

الذي يتحرك فيه إياس يترك لدى من يجلس معه انطباعًا مسالمًا. وهو ما كنت أحتاج إليه؛ كان يحيد بنظره عني، وكأنما لا يريد أن يحرجني. فيما رفعت ساقيَّ على الكرسي، بدا أني لا أريد أن أشغل أدنى حيز في الأرجاء الممتلئة بظلال امرأة غير موجودة. لكن في الحقيقة، كنت أنكمش إلى ذاتي، فأنا لجأت إلى إياس لأني اعتبرته من أحاديث صفاء عنه، شخصًا آمنًا. لا يحرج من يجالسه. وكنت منذ عرفت بسفر يوسف أشعر بأن مجرد وجودي محرِج للآخرين. إياس لم يأتِ بما يُشعرني بالحرج. لكن ظلال صفاء كانت ثقيلة عليَّ.

أكان عليَّ التفكير في أن أساعده بدوري من أجل الفكاك من ماضيه؟

لكنني منذ البداية لجأت إليه، لأنه رجل حزين، وشعرت بأن بوسعي أن أشعر بشيء من العطف نحوه. وعلى الشرفة فيما كنت أنظر إلى أشجار الحور؛ كانت تصلني أصوات حركة إياس في الداخل. كانت أصواتًا خفيضة، تشبه كل شيء في عالمه الذي يظلله الزمن بطبقة آسرة من الأسى والصمت.

كان واضحًا بالنسبة إليَّ، وما إن رأيتُ دراجة نور في الخارج، أن إياس لم يكن يريد لحياته أن تمضي قُدمًا. الاعتراف بغياب الأحبة أمرٌ شاق. كنت محاطة ببساطة إياس ورِقته ومحاولاته عدم إحراجي وهو يحاول أن يجنبني شتى أنواع الأسئلة. حتى إنه أعدَّ الإفطار من أجلي، من غير أن يسألني إن كنت جائعة. وحاول ترتيب الفوضى التي كانت تظهر أمامي. لولا وجود بعض آثار حياته برفقة عائلته، لكنتُ قلت إنها فوضى رجل أعزب. لكن إياس لم يكن أعزب. كان منفصلًا

عن زوجته منذ أربعة أعوام. وهي مدة تزيد عن كونها كافية كي يبدأ الرجل حياته من جديد. هذا ما كنت أظنه. شعرت وأنا أجلس على الشرفة فيما أحدس بما يجري في الداخل من كلمات إياس البسيطة التي تشرح لي أوقات عودة الكهرباء وعمل الغسالة؛ بأن بوسعي البقاء برفقته مدى الحياة. لكن بقي لديَّ الانطباع بأن إياس كان يحفل بما بقي لديه من تجربته السابقة. حتى عندما أخبرني عن مكان مسحوق الغسيل، وعن مكان الملاقط، ظننته يتحدث إلى طليقته. لأن في حديثه قُربًا وألفة، لا أظن أنهما موجهان إليَّ. فهو - عدا لقاءات قليلة وعابرة ومتباعدة، حدثت بوجود زوجته - لا يعرفني. وأخذتُ أشعر بأنه أَلِف وجودي بتلك السرعة، لأني قادمة أساسًا من عالم زوجته.

أعرف أن اضطرابًا يحركني كي أكون مع رجال صديقاتي. لكني لا أنظر إلى المسألة بهذه الصورة. لا أتخيل نفسي مع رجل لا أعرف شيئًا عنه. ووجودي مع رجال أعرف أسرارهم يمنحني شعورًا بالأمان. فهُم لن يفضحوا أمري. كنت أميل إلى العلاقات التي من الصعوبة أن يفتضح أمري بها. أنا أفهم ذاتي، وبعد ذلك، لا أكترث لأي حقيقة أخرى. وربما كان هذا خطئي. ربما لم يكن لي الحق في تجاهل ما يدور خارج نفسي.

تركني إياس في المنزل بعد أن أعدَّ فطوري، وخرج من غير إفطار. ربما أربكه وجودي معه، وربما لم يكن جاهزًا بما يكفي لاستعادة أشباح الحياة المشتركة. حتى إنه لم يَعُد للعيش مع والدته، مع أنه بحسب ما أخبرتني صفاء، كان يخطط لذلك. أو هي مَن افترضت بنرجسية مفرطة؛ عدم تفكيره بالارتباط بامرأة بعدها، بل افترضت

عودته للسكن مع والدته في منزله القديم في المشروع الأول. لم أجد إشارات لحياته مع إحداهن في المنزل؛ كل تفصيل من تفاصيل المنزل كان خاصًّا بصفاء. بعد خروجه من المنزل بقيت بمفردي على الشرفة، لا أفعل شيئًا سوى النظر إلى الأشجار والعصافير في فناء البناء. شعرت بأن أفكاري أخذتني بعيدًا بشأن وجودي في حياة إياس، لا أظن أن كلينا يحتاج إلى أكثر من الشعور بالرفقة؛ وكانت حياته كما أتصورها سعيًا هادئًا وخفيضًا إلى العيش في النسيان. كان يمكن لمن يرى حركته الوئيدة داخل المنزل، أن يعتقده ظِل إنسان على الحائط، لا إنسانًا بوجود ملموس. ويمكن أن أقول؛ بخفوته وانسجامه مع أثاث المنزل وخفة حركته، كان أشبه بالعابر بين ظلال أشياء أكثر وضوحًا منه. كاد انطباعي عنه أن يكون إنه إنسان يتناهى بكامل وعيه إلى النسيان، وأقرب لأن يكون ذكرى بعيدة من أن يكون بشرًا.

عندما تجولت في المنزل، شعرتُ بأني أتألم من أجل هذا الغريب الذي لا أعرفه. لكنني أعرف الكثير عن تفاصيل عيشه، وعن التفاصيل الموجودة في المنزل، وربما ساعدني شعوري بالحنق على صفاء، في تجنُّب الشعور بقلة الأمانة إزاء حياتها. في جميع الأحوال، لم أكن ذلك الشخص الذي يبوح بأسرار الآخرين - ولو أني أتحتُ لنفسي استخدامها - ليس بقصد إيذاء أحد، فقط كي أردَّ الأذية عن نفسي. تعلمت استخدام أسرار الآخرين كي أحوك حياتي بها.

شخص مثل إياس كان مناسبًا لي، وأنا أرى صورته مع نور فوق المرآة، بدا لي نور أكثر جدية من أبيه، وربما بسبب الوقوف أمام الكاميرا. إذ يترك الوقوف أمام الكاميرا انطباعًا بجدية اللحظة، أو

التوثيق لها. يدرك الأطفال هذا التفصيل، خاصةً أن الصورة مأخوذة في استديو، لا في المنزل أو على البحر. وكان إياس يعرف كيف يحتال على الكاميرا، ويبدد مشاعره الحقيقية في تعابير وجهه. لكن ألح عليَّ الشعور وأنا أراهما، أن نور كان يعي وهو يترقب فلاش الكاميرا أن اللقطة التي تجمعه بوالده، في طريقها لأن تكون ذكرى مقتضَبة عن الأب.

لم أجد صورًا تجمعهم كعائلة، لم أجد صورًا لصفاء وحدها. ولا أظن أن هذا التفصيل مقصود. ففي زياراتي السابقة كلها لم أنتبه إلى وجود صور لصفاء في أي ركن من أركان المنزل. بدا أن إياس أخرج صورته هذه مع ابنه ووضعها في المكتبة بعد سفر نور مع والدته. بدا أن ما أزَّمه هو غياب ابنه، وما بدا تخليًا عن ابنه، وليس فقط غياب المرأة عن حياته. وقد تركتْ لديَّ صورته مع ابنه أمام كاميرا استديو التصوير انطباعًا حادًّا أنهما كانا يقفان على مشارف زمنين. أظن أني أفهم كيف يفكر إياس، أظن أني أعرفه، ويمكن أن نكون قريبين. لكنني بهذا التفكير بدأت أرهق نفسي، وأحاول تجنب التفكير بيوسف، لقد أخطأتُ بحضور وداعه. ولا أنسى مظهري في الشارع أمام زملائه، بدا أني مُقدِمة على جريمة قتل. أمرٌ مضحك. لا أستطيع أن أمنع نفسي من الضحك لهذا الخاطر؛ وهو أن يترك تعذُّر وداع الأحبة على الوجوه إيحاءً يشبه تعابير مرتكبي الجرائم.

كنت أبدو تائهة. ولا شك في أن الشاب الطويل استغرب تعابيري، وانسحابي المتعثر من بينهم. أظن أني بدأت أضحك بصوت مسموع قوي. حاولت ضبط ضحكي، من غير أن تنقلب الدراما التي كنت

أعيشها في المنزل القفر الخالي الذي يعود للرجل القفر الخالي، إلى دموع. ولم أكن أعرف ما الذي أفعله في منزل إياس، ولا أعرف على وجه الخصوص عندما يعود من عمله؛ ما الحديث الذي سيدور بيننا. لم أشعر بأنه في وارد أن يحدثني عن حياته التي أعرف الكثير عنها بصورة غير نزيهة.

نشأتُ في منزل زوج أمي، بعد انفصالها عن والدي؛ الذي بدوره كان مسؤولًا عن ابنة امرأة أخرى. أظن أن سلوك والدتي معي إلى جانب مفارقة أن والدي كان يربِّي ابنة ليست من صلبه، جعلني أشعر بأني وصيفة أؤدي دورًا بالنيابة عن أحد آخر، فيما الدور الذي خُلقت من أجله بحكم الطبيعة؛ كان يؤديه أشخاص آخرون. أخذت أفكر، ربما كان دوري أن أكون الوصيفة. لا أعرف. أجدني مرتاحة في كوني أحلُّ مكان امرأة أخرى. لست متألمة. ولا أستطيع الادعاء بأني هدَّرت سنوات من حياتي في علاقات بلا طائل. تقبلت مصيري، ولا أفكر بتغييره. لكنني مع إياس، أهاب أن أحلَّ وصيفة لامرأة لم تَعُد موجودة. في منزل إياس، شعرت بأن الدور الذي ينتظرني شاق عليَّ. لكنني لم أكن أقوى على المغادرة. وقد وجدت في الصمت الذي يخرج من كل ركن من المنزل ما يغويني بالبقاء.

كنت قد سئمت الخوف من انكشاف أمري دائمًا. لكن بالنسبة إلى صفاء، فلن تجد مشكلةً في أن أكون في حياة زوجها السابق. إنني أعرفها. وما أهابه ليس صفاء، وإنما غيابها. كان إياس يعيش بعد الانفصال كما لو أنه في حِداد. وهو أمر، ليس لأحد سوى أن يحترم خياره في أسلوب العيش. كان يحبها. أنا أيضًا أحببت يوسف،

أو أعتقد أني أحببته، لكن الخديعة التي رماني إليها، أشعلتْ لديَّ الرغبة في أن أنسف ماضيَّ معه بأكثر الطرق حقارةً.

كانت ريما تُحمل إياس مسؤولية الخطوة التي اتخذتها صفاء. وكنت أشك حيال رأيها فيه، ودائمًا كنت أعتقد أنه يعجبها. لريما تناقضاتها. وكانت بحكم زواجها، أكثر تعقيدًا مني. ليس يسيرًا على المرأة المتزوجة أن تتصالح مع فضولها تجاه رجل آخر. الوفاء يشدها من جانب، والرغبة تشدها من جانب. لا أفكر بالزواج. الحياة هكذا تناسبني. كانت ريما، بحسب ما تقول، ترى إياس شخصًا دراميًّا، وكنت ألمح لديها شيئًا من الشفقة عليه. كان يوسف يراه مثالًا لا يَقدِر أن يكونه. وبالنسبة إليَّ، كنت أراه من ذلك الصنف الذي بمقدور الفتاة أن تأمن جانبه. لكن وأنا أرى كل تفصيل في المنزل متروكًا كي يُذكره بصفاء، تأكدتُ أني لست في مكاني المناسب.

هكذا جمعتُ الصحون ووضعتها في المجلى، ثم نظفت الطاولة، ولم ألمس المفتاح الذي تركه لي إياس، ولم أشعر بأن لديَّ نية لاستخدامه. كما رتبت ما استطعت فوضى المطبخ، وأنا واعية ألا أخفي أثرًا من آثار حياته السابقة مع زوجته. مع قناعتي أن المحبين يتأخرون في إدراك أن الزمن لا يعود إلى الوراء، واللحظات القديمة لا يمكن استعادتها، إلا أنهم يعيشون في زمنهم الخاص، زمنهم المفقود بصورة دائمة. بعد أن جمعتُ الصحون وبعض الأواني المتراكمة، وضعت ركوة قهوة على الغاز، وبدأت أغسل الصحون والأواني. وفي داخلي قرار أن أخرج من المنزل بعد أن أشرب القهوة للمرة الثانية.

كانت ظلال قلة النوم لا تزال عالقة في جفنَي. أردت العودة إلى

غرفتي لأكمل نومي، وطفا في داخلي شعور مؤرِّق، وهو أني لو نمت في منزل إياس، ولو على الأريكة؛ سأدخل متاهة لم أكن مستعدة لخوضها. اكتفيت بشعور الرفقة العابر الذي منحني إياه إياس ما إن أتاح لي العبور بمحاذاته في الردهة. وأعدَّ القهوة لي، وأتاح لي الجلوس بمفردي على الشرفة، وأعدَّ إفطاري، وخرج من غير أن يثقل بوجوده على الوصيفة التي كانت لمرات قليلة في حياتها، لا تُعامَل كوصيفة.

أخذتُ القهوة، وعدت مجددًا إلى الشرفة؛ أنزلت الستار القماشي كي أردَّ شمس الظهيرة، وأبعدت الكرسي عن الدرابزين، ومن ثم جلست لأشرب قهوتي بهدوء قبل أن أغادر، وأتابع نومي في غرفتي بهدوء. وكنت قد تأخرت عن فتح حسابي على الفيس بوك. وهكذا، بهدوء ومع ابتسامة عرفتْ طريقها إلى شفتَي في تلك اللحظات الهادئة، مع أني كنت مقهورة من ريما ومن يوسف ومن صفاء ومن العالم الذي شكَّل علاقاتي المعقدة؛ عرفتِ الابتسامةُ طريقها إلى شفتَي بصورة غير متوقعة، شعرتُ بأني مرتاحة. وأردت أن أشرب القهوة، كي أطرد النعاس وأعود إلى غرفتي.

كنت أشعر بالراحة والقبول، عندما فتحتُ الفيس بوك ورأيت عددًا من الأصدقاء يتساءلون عن مقتل المحامي ليلًا في منزله. قرأت أشياء عن الفساد، وعن تورطه في عدد من القضايا ضد أشخاص فاسدين. قرأت منشورًا على إحدى الصفحات، يتحدث عن أن الضحية كان على موعد للسفر خلال أيام. وقرأت تعليقات يقول معظم أصحابها إنه كان هاربًا من انكشاف أحد ملفات الفساد. قرأت تعليقات عن

ترجيح احتمال الانتحار. وهي طريقة شائعة في تصفية من يعترض طريق المافيا.

وأنا أقرأ هذه التعليقات، لم أفكر بيوسف. حاولت كل ما بوسعي، أن أُبعد احتمال أن يكون هو المقتول. عقلي كان يعترض، عقلي استمر بالاعتراض على احتمال أن يكون يوسف هو المقتول؛ إلى أن رأيت صورته في أحد المنشورات، وشعرت بأن حياتي مهددة بخيط العار المتين الذي جمعنا. سرعان ما أدركت أن موته سيكشف حياتي.

حتى لو كان كل ما يُكتب على الفيس بوك من غير معنى، إلا أن موت يوسف المفاجئ كان نوعًا من الجريمة التي لا تتوقف الحياة عن اقترافها. تألمتُ. لم أستطع أن أبلع ريقي. لم أكن أعرف ماذا أفعل، ومع من أتصل. وهل دفنوه. وكيف أصل إلى ريما. لكن لم يكن لديَّ القوة كي أخابر أحدًا. تساءلت إن كان إياس قد سمع بالوفاة، وأين يكون. لا أعرف كيف تمالكتُ نفسي حتى وصلتُ الأريكة، وتمددت مع مخاوفي.

المؤكد أني أردت عودة إياس حالًا، أردت أن أراه، وأن يخبرني ويعيد عليَّ ما حدث، وأن يخبرني ماذا يقول أهل اللاذقية عن انتحار المحامي، بحسب بيان وزارة الداخلية الذي كان آخر ما قرأت. ثم سرعان ما صارت غرفتي تفصيلًا من الماضي الذي بات مهددًا بالعار.

ريما

أخيرًا بعد سنوات من الانتظار؛ سنغادر. منذ وصلَنا إيميل السفارة الأميركية في بيروت، ولا نعرف ماذا نفعل. كنا نسينا مسألة الهجرة. أعمال يوسف أخذت تكبر، وكنت قد هيأت نفسي للاستقرار في اللاذقية. حتى إنني نسيت أمر حبوب منع الحمل. عندما وصلَنا الإيميل كان لي أكثر من عام متوقفة عن استخدام حبوب منع الحمل. ولكن الحمل لم يحدث. ولهذا شأنٌ آخر.

كنت قد قررت خوض تجربة الأمومة وعدم انتظار السفر وتغيير المكان. خصوصًا أن التأجيل المستمر للإنجاب جعل علاقتي مع يوسف محفوفة بالأخطار. صحيح أن رأيه أيضًا كان أن نؤجل الإنجاب إلى أن نستقر في الخارج. لكن مع الوقت، مع مرور السنوات، شعرتُ بأنه يريد أن يكون لديه ابن. لم أخبره عندما توقفت عن تناول حبوب منع الحمل. أخبرني الطبيب أن رحمي أعدَّ نفسه لسنوات من أجل الحمل، لكني لسنوات لم أحمل. امتنع رحمي عن الاستجابة، وكأنما احتج على حرماني إياه فرصة الإنجاب. وصفَ لي الطبيب أدوية لتنشيط المبايض وتجهيز بطانة الرحم. وداومت على الأدوية التي

أعطاني إياها لأشهر. لكن بلا فائدة. مع ذلك، بقيت لا ألوم نفسي بسبب القرار بعدم الإنجاب.

عِوض شغب الأطفال، كان يعيش بيننا الفراغ. أحيانًا، كنت أعتقد أن يوسف لا يأبه بأن يجد حلًّا للفراغ الذي عمَّ أوقاتنا. لم أكن أعتبر الإنجاب حلًّا. لكنني لا أنكر أنه نوع من الحل في حياة الأزواج. نجح يوسف في التشاغل عن الفراغ الذي تركه قرارنا بعدم الإنجاب. أما أنا، فقد أخذت آكُل نفسي. ومن بين المخاوف التي خربتْ عليَّ القرار بالسفر؛ وداع أهلي، أقصد أمي وقبر أبي. في جزء مني، كنت أشعر بسعادة غامرة لاقتراب الخلاص. وفي جزء آخر، كنت حزينة في أعماقي. بدأت أجمع الأغراض وأكدسها في غرفة الطفل الذي لن ننجبه في اللاذقية، كي أوزعها على الآخرين. وقد أخذت أوزع جهاز عُرسي وأدوات المطبخ التي اعتدت عليها، وكنت اشتريتها من محالَّ أُحبها في المدينة ولمعظمها ذكرى لديَّ.

أخذت أوزع أغراضي، فأنا راحلة. حتى لو كان بمقدوري العودة، وحتى لو عدت، لن أكون المرأة التي ستخرج في غضون أيام. كنت أهمُّ بالخروج من الشرنقة، امرأة جديدة. وأنا واعية أني لن أعود مرة أخرى.

ليست التفاصيل التي تخصني فقط في المنزل هي ما كانت توجعني، أيضًا تفاصيل يوسف، ثيابه وأحذيته التي كنت حريصة على اختيارها، كل ما يرسم صورته كان من صنعي. كنت أتباهى بأناقته، يوسف نفسه كان تفصيلًا من تفاصيل حياتي التي اهتممت بها. وإلى جانب الأشياء التي تخصه، أكثر ما كان يوجعني التفاصيل

التي تجمعنا، بدءًا من الأثاث والكراسي البحرية، وكل شيء. ماذا أحصي. توجد أشياء ناقصة. توجد أشياء لن أستطيع أنا نفسي معرفتها؛ كنت أجمع ذكرياتي كلها. وأخذ يخيم عليَّ طوال الفترة التي كنت أرتب فيها شؤون المنزل، شعور بأني أرمي نفسي كي أولد من جديد. آمالي كلها كانت تبدأ من مطار بيروت؛ سأترك ذاتي القديمة في منزل اللاذقية. وفي أميركا سوف تلاقيني واحدة أخرى. أما بالنسبة إلى الطريق إلى هناك، أظن أنه وقتٌ يلزمني كي أنسى. لن أكون محتاجة إلى شخصية تحركني بين المطارات، سأكون مسافرة، مثل الحقائب. وهناك، ما يحدث أن النساء يتصرفن في البلدان البعيدة مثل أمهاتهن، يخلقن أنفسهن على صورة أمهاتهن. أعرف هذا. وأعرف أني سأتصرف مثلما تتصرف أمي هنا. مع فارق أنها لن تراني أحاول القيام بكل الأشياء التي علَّمتني إياها أو تعلمتُها منها أو ورثتها عنها. وقد مرنتُ عقلي على أن السفر سيكون من غير مشاكل تُذكَر. حاولت خداع نفسي كي أكتسب شجاعة كسر الرتابة.

كتبت أسماء أصحاب الكراتين عليها، كي يأتوا ويأخذوا ما صَنَع منزلي إلى منازلهم، ما إن يحين موعد السفر. وجدتُ حلًّا لكل شيء. لست صغيرة في العمر. وقد اكتسبت بعض المعارف التي تتيح لي أن أقول نظريات مثل هذه؛ سأصنع أُمًّا لي في أميركا. إذ لا أتخيل مقدار قسوة العالم من غير أمهات. كنت لا أزال أعيش في كنف أمي ناديا. زواجي من يوسف لم يفطمني عنها، لا تزال ناديا تطبخ لي الأطعمة التي تَصعب عليَّ، ولا تزال تُشرف على تنظيم الكثير من شؤون حياتي.

عندما أخبرت جارة أمي بأنني سأعيد لها منقل الفحم الذي صنعه ابنها من طبقتين، سألتني في البداية إن كان هناك عيب في صناعته. ومن ثم أخبرتها: «أنا مسافرة». غير أنها ألحت عليَّ أنها ستقبل إعادته على أن يكون أمانةً لديها، وأنها لن تستخدمه ولن تسمح لابنها أن يبيعه. وقد ارتبكتُ وهي تؤكد لي أنها ستحافظ عليه، ريثما أعود. مَن يعيش في المكان، لا يصدِّق أن الآخرين ممن يغادرونه، لا يفكرون بالعودة. لكن في النهاية، من يخرج، لا يعود. العودة تعني الموت.

وكنت بالفعل قد اقترحت في وقت سابق، تفصيلَ منقل خاص بمنزل صلنفة. وكان يوسف قد قرر أن نترك منزل صلنفة، كما هو، من غير أن نتصرف بأيٍّ من تفاصيله. وعندما سألته إن كان يفكر بالعودة، لم يُجِبني. كذلك لم أُلح عليه. لم نكن نحتاج إلى المال. وشعرت بأن بقاء المنزل في صلنفة سيتيح لي أن أصبح مهاجرة. وربما تمرُّ فتيات بالقرب من المنزل إلى جوار الكازينو، ويسألن عن أصحاب المنزل المهجور. حيث تُردد إحداهن للأخرى؛ إنه لمهاجرين. وقد أتاحت لي الحياة أن أجرب الدور الأول. وها هي توشك على أن تتيح لي أن أؤدي الدور الثاني. ولو أن للدور الذي أديته في الطفولة البعيدة مذاقًا ليس بمقدوري استعادته. إنني أتذكر كلماتي وضحكاتي مع قريباتي ونحن نلعب في حدائق منازل المهاجرين. مع أن قلبي كان غائمًا تحت ستار من الحزن، إلا أن المشاعر التي أخذتْ تعود إليَّ من سنوات الطفولة البعيدة بدأتْ ترفرف داخل قلبي. الزمن مَر، وترك المستحيلات وراءه.

مع السعادة التي كانت تظهر عليَّ، إلا أنني كنت متوترة. وكان توتري يزعج يوسف الذي كان يعرف عادةً كيف يتعاطى مع حالاتي كافة. وخاصة كان يكفيني الاستماع إلى مخاوفي كي تهدأ. كان يعرف كيف يجعلني أبقى مرتاحة. ولست أنكر أني لم أكن أهتم كثيرًا بالطريقة التي كان يجعلني فيها أبقى مرتاحة. كان يكذب عليَّ. كان يحاول أن يتجنب نوبات غضبي أو اكتئابي. صحيح أننا قررنا عدم الإنجاب تجنبًا للمتاعب الكثيرة التي يتسبب بها الأولاد. لكن ذلك لم يجعلنا في مأمن من المتاعب؛ وعِوض متاعب الإنجاب، بدأت متاعب عدم الإنجاب تظلل حياتنا. يجب أن يكون الإنسان قويًّا ويواجه مخاوفه بمفرده وبشجاعة. تعلمت هذا. وتعلمت أن على الإنسان أن يدفع ثمن خياراته.

أراد يوسف أن يصير أبًا. لمست هذه الحاجة لديه في بداية زواجنا. لكن عندما أصبحت مستعدة للإنجاب، ونسينا أمر الهجرة، لم أعُد أشعر بأنه مهتم بأن يكون لديه طفل. وبقي يؤلمني الشعور أني من سلالة النساء اللاتي ينجبن على أطراف الغابات. لكن بقرار عقلي قاسٍ، قسرتُ نفسي على عدم الإنجاب. وقربي من ناديا بعد زواجي، جعلني عالقة في دور أقرب فيه لأنْ أكون فتاة لا تزال تتأهب لدخول عالم النساء. عندما تأكد أمر سفري رجوت الله أن أحبل، تضرعت إليه، ناشدته أن يُدخل شيئًا من ريح الأطفال في رحمي. ولم يتساءل يوسف حيال إلحاح أن نمارس الحب، الذي كان باردًا بيننا، وخاليًا من العاطفة، لأن يوسف متوتر، ولم يبقَ في داخلي أمرٌ أطلبه سوى الإنجاب، أردتُ أن أحبل، أمرٌ تَرافق

مع تأكيد سفري. لم ألمس بالضبط طبيعة ما يحركني، لكن سلوك يوسف وارتيابه من رغبتي بأن ينام معي، كلها أشياء جعلتني أستاء. وبدا أن المسافة بيننا كبيرة.

كانت ناديا تحاول جهدها التخفيف عني، وكانت تقولي لي: «أنتِ مسافرة، حاولي أن تكوني سعيدة». في أحاديثي معها كانت كعادتها كثيرة الابتسام. تلك طريقتها في تبديد البشاعة التي أحاقت بنا. ربما لم تكن بشاعة، بقدر ما كانت صعوبات الحياة نفسها. وقد نشأتُ محاطة بشعور أني تحت المراقبة. في أثناء دراستي الجامعية، لمست بالضبط شعوري ذاك. كانت أمي تَسترِق السمع إليَّ مع صديقتي الجامعية في أثناء زيارتها لي. شعرتُ بأنها كانت تفعل ذلك طوال الوقت بدافع الخوف عليَّ.

كانت ناديا تجعلني أجلس برفقة صديقاتها في جمعية أطفال التوحد، لأستمع إلى أحاديثهن، أرادتني أن أتعلم أحاديث النساء. وأحيانًا أفكر أنها كانت تريدني أن أكتسب عادات إحدى السيدات اللاتي كن يجتمعن لديها. السيدات اللاتي لديهن اهتمام بالشأن الاجتماعي العام. أنا نفسي أردت أن أشبهها في اهتمامها بتفاصيل والدي، في اهتمامها بلباسه ومظهره أمام زملائه في العمل في مَصرف التسليف الشعبي. أيضًا كانت ناديا تدقق في لباسي وحركتي وطريقة كلامي. ولم تكن تثق بصديقاتي اللواتي لا تعرف أمهاتهن. لكن ذلك كله لم يمنع أني أردت أن أشبهها. عاش والدي سعيدًا برفقتها، تحت قوانينها، وهذا ما أردت أن أصنعه مع يوسف. تأخُّري في الإنجاب، فقط، هو ما خرَّب علاقتنا. كما لم أفهم حماسة يوسف تجاه السفر.

كان يبدو لمن يراه رجلًا متحققًا في اللاذقية. يعرفه الجميع ويُظهرون له الود، إلى درجة يظن المرء أنه رجلٌ من غير أعداء.

منذ تأكد أمر سفرنا، ارتبكت حياتنا. والسنوات التي قضيناها في الانتظار أفقدت تلك الخطوة المرجوة سحرها. لا أصدق أنني سأغادر أخيرًا. ولا أستطيع القول إني كنت سعيدة لهذه الخطوة. لكن لم يكن لديَّ الجرأة لرفضها، السفر هو ما أردته طويلًا. يوسف أيضًا مع حماسته، بدا غير مرتاح، ولم يكن بمقدوري أن أعرف سبب عدم ارتياحه. وبدا مهووسًا بأن يجمع تذكارات وبطاقات بريدية عن مدينة اللاذقية، عن متحفها وميناءها وكورنيشها، عن شوارعها وأسواقها وساحاتها، عن منازلها القديمة وبحيراتها وقلاعها. وكنت أراه حتى وهو يقود السيارة ينظر إلى الشوارع، وكأنما يودعها. كأنه استفاق على حب المدينة فترة وداعها. ومثلما يقال؛ الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا. وكأنما كنا نعيش في سُهاد الاعتياد، والسفر أيقظنا دفعة واحدة.

ليس يوسف وحده من كان يشعر باقتراب نهاية الرحلة في اللاذقية. أيضًا أنا، ومع خوفي من الاستقرار النهائي فيها، ومع الحدود التي بنيتها في حياتي باقتصار تواصلي على دائرة ضيقة من الصديقات. لكنني لم أكن ذلك الشخص الذي يتقبل فقدَ البشر أو الأمكنة. وكان الاعتياد بالنسبة إليَّ نوعًا من الطمأنينة. سفري المرتقَب كان خدشًا عنيفًا في سطح تلك الطمأنينة. لم أكن مرتاحة وأنا أعدُّ نفسي وزوجي للسفر. فجأة وجدتُ نفسي مضطرة للتعاطي مع رجل لا أعرفه. قلِقٌ ومتوتر، وكأنما لديه ما يخفيه عني.

بدأت أتذكر صفاء، وأشعر بأني أحتاج إلى مشورتها. وقد سافرتْ مع ابنها، وتركت إياس منذ أربعة أعوام. هو يقول منذ عامين. لكن جميعنا يعرف أنها سافرت منذ ما يقارب الخمسة أعوام. لا أعرف متى اقتنع إياس بأن يضيف للعامين عدة أشهر. كنت أحزن عليه. لقد فقدَ شيئًا من قراءته للزمن. فيما كانت صفاء أقرب صديقاتي. أقرب إليَّ من لين، التي لم يكن لديها خبرة في حياة الأزواج. وكنت أعتبرها صديقة للأوقات العادية. في الوقت الصعب الذي كنت أمرُّ فيه، لم أكن أرى لين مناسِبة. حتى إن وجودها بجانبي بدأ يُشعرني بالعبء. إذ كانت تنظر إليَّ، وأنا أتحدث عن مخاوفي نظرات مكسورة، وقد أجرؤ بالقول نظرات ناقمة. اختلاف ظروف الناس ليس ذنبهم. حاولتُ تجنبها في الفترة الأخيرة، لم أشعر بأنها مناسِبة للوقوف إلى جانبي، كي لا أبدو امرأة أنانية. ثم كانت لديَّ أولويات تشغلني عن فهم لين التي بالأساس؛ كان سفر صفاء السبب في تقربنا من بعضنا.

أحيانًا تنشأ العلاقات بين الناس بفعلِ الفراغ. لا أريد القول إن لين فتاة عادية. كانت مميَّزة بحق. لكنني كنت أراها تعويضًا عن صفاء المسافرة. بدأت علاقتنا بهذه الصيغة واستمرت كذلك. وكنت مثل الآخرين أملأ الفراغ الذي سبَّبه غياب البشر ببشر آخرين. وكنت بالتأكيد إحدى حلقات تلك السلسلة من التعويضات التي ترمم الحياة بها نفسها في بلد يخسر كل إشراقة شمس شيئًا من ماضيه. إنني أعي ذلك، وأعي مثلي مثل كل أهالي اللاذقية التغيرات التي طرأت على المدينة في السنوات الأخيرة. وفي داخلي كان ينمو شعور من يعرف أن بلاده لم تَعُد له. في كل المجالات؛ كان هناك شعور أننا بلدٌ دَخل

الأسر. كان هناك شعور لدى طيف واسع من الناس أنهم يُمتهَنون. وكنا نعيش في رواية تُهدَر كرامة أبطالها.

كان يوسف يشتكي في الآونة الأخيرة من ضغوط كثيرة، لا أستطيع أن أقول إني أعرف طبيعتها، فقد كان متكتِّمًا على أعماله. لكن في جلساته مع خالي نذير، الذي كانت له كلمته في المحافظة؛ كنت ألمحُ مخاوف يوسف. وأنا بالفعل لم أكن أفهم إصراره المفاجئ على ضرورة الخروج سريعًا من البلد. مع أنه كان يُظهر اعتياده العيش، إلى درجة اعتقدت أن ما ينقصنا كي نستقر في اللاذقية بصورة نهائية، هو فقط، الإنجاب في المكان. لكن عندما كان يجلس مع خالي، كان يبدو إنسانًا مذعورًا. إنسانًا مكشوفًا، وعُرِيُّه هو ما جعله مذعورًا. الكثير من الناس هنا، يمضون حياتهم وهم يشعرون بأنهم تحت الخطر. كنت في المنزل أعتقد نفسي بعيدة عن الفضاء المسموم في الخارج. وقد سمعتُ منهما عن حوادث السرقة والقتل، وتهريب الآثار والمخدرات والبشر. كنت أخاف أحاديثهما. وكنت أشعر بأن العالم لم يَعُد آمنًا.

أخذت أتلصص على أحاديث زوجي وخالي، مثلما كانت أمي تتلصص على أحاديثي مع صديقاتي، بسبب الخوف. جميعنا كنا نغرق. وأنا أستمع إلى أحاديث يوسف مع خالي، لم أكن أشعر فقط بأنهما شاهدان على المرحلة الوسخة من حياة بلدنا، وإنما كنت أشعر، كيف أقولها... بأنهما شريكان ونافذان. وقد اعتاد عقلي على طرد هذه الأفكار. كنت أتفهَّم صعوبات الحياة، وأعرف أن الراحة المادية تتطلب بعض التنازلات. أيضًا مع الرفاهية التي تظهر

على أحاديثي ولباسي ومختلف الأنشطة التي أقوم بها؛ كنت أصارع سؤالًا مضنيًا لم يستطع يوسف أن يقول الإجابة عني، مع حاجتي إلى ذلك. وهو سؤال بسيط للعديدين، لكنه كان شاقًّا عليَّ أكثر من قدرتي على القول، وهو:

هل أنجب أبنائي في أرض تُفسد أبناءها...؟

بقي هذا السؤال معلَّقًا من غير إجابة حتى وجدت نفسي عاجزةً عن الإنجاب. قبِلت بتنازلات الحياة متأخرةً. عِشت لسنوات أحاول الانشغال عن معركتي الثقيلة في الإنجاب إلى أن هزمتني. التوتر الذي ظهر مفاجئًا في شخصية يوسف جعلني أفكر أنه أيضًا يصارع أسئلته. جاءت ترتيبات السفر والظروف التي سبقته، كي تضعني أمام حقيقة اغترابنا. وهذا أمرٌ أحبطني. حتى اضطراب الجنس بيننا لم يكن إلا تأزُّمًا للحب الذي اعتقدت أنه جمعنا. كما بدأت أدرك، ومن غير قدرة على تغيير شعوري، أني غير راغبة بالسفر معه. لقد استنزفنا فُرَصنا معًا هنا. وأحيانًا كنت أقول إن السبب بهذه المشاعر هو ازدياد حساسيتي مع اقتراب السفر. وهذا لا يعني ألا يحزن المرء على فراق بلده. على فراق اضطر إليه. فمن يخرج ليس متأكدًا إن كان بلده، بالصورة التي عرفها، سوف ينتظر عودته.

* * *

كانت صفاء أول من انتبه إلى أنني ويوسف لا نضحك على النكات نفسها، ولا تلفتنا المشاهد نفسها في الأفلام التي كنا نحضرها معًا. وكان مزاجها أقرب إلى مزاج يوسف. كنت أشعر بالغيرة من جراء ذلك. كانا يضحكان على مشاهد الموت، ولا أنسى أنهما اعتبرا

فيلم الأخوين كوين «لا بلد للعجائز» فيلمًا ساخرًا. كانا يضحكان بكل طاقتهما على الضحك. فيما كنت مع إياس مرعوبين من عبث الموت وسهولته. أيضًا كنت أشعر بأنني أقرب إلى إياس في مزاج الأفلام منه إلى زوجي. صفاء كانت متأكدة حيال ذلك. كانت تقول لي بصيغة مزاح إننا تعيستان لأننا تبادلنا النصيب. وكنت أضحك. لأني أعرف مزاحها أحيانًا كم يبدو ثقيلًا. لم يكن الأمر يسبب الغيرة لكلتينا. لكن عندما كنت أختلي إلى نفسي، كنت أتألم صامتة، وأشعر بأن مقارنتها كانت جاحدة بالنسبة إلى عروس جديدة.

أحيانًا أعتقد أن صفاء أكثر صلابة مني، لولا أني رأيت لحظات انهيارها قبل أن تحسم قرارها بالانفصال عن رجل مكتئب، يقسرها كي تشعر بلذة العيش على أن تفكر في غيره... وكان إياس بالفعل؛ يوزع وقته بين الاكتئاب وبين العمل. الاكتئاب لم يكن عرَضًا طارئًا لديه، وإنما كنت أراه اكتئابًا صنع جاذبيته. وقرار الانفصال القوي الذي اتخذته صفاء، بيَّن لي أن المسألة لم تكن في صلابة شخصيتها، وإنما بدا أنها مع إياس، قطعا أشواطًا خفية في الانفصال. مع هذا الإدراك، شعرت بأن فكرتها التي كانت تجدها ساخرة عن تبادل النصيب، كان من المؤلم سماعها بالنسبة إليَّ. كنت لا أزال واهمة بالحب وبتقديس الجسد.

مرة وأنا أتحدث مع لين عن احتمالات غير الانفصال لحكاية صفاء، أخبرتني أن صفاء لو استمرت بالحياة مع إياس، لكانت قتلته. إذ كان يقسرها ببروده على سلوكيات مستهترة، حمقاء. وكانت تحبه مع ذلك؛ وكأنما كانت تنتقم منه عبر نفسها، وباستخدام جسدها...

أما عنه، فلم أكن ألومه، اكتئابه حقيقي، وحزنه جعله يبدو إنسانًا مسلوبًا. ولم يفاجأ يوسف من سماحه بسفر ابنه نور مع طليقته صفاء. حتى إنه نقل لي وللين حواره مع إياس عندما استفسر منه عن قبوله أن يعيش ابنه بعيدًا عنه، وكان جوابه أنه من الأفضل للطفل أن يعيش مع امرأة تعرف ماذا تريد؛ على أن يعيش مع رجل مستسلم، وقد هزمه الواقع.

أفهمه الآن، أفهمه. إنه يدرك أنه يعيش في بلد مُهان. لم يكن يحتاج كي يبرر استلابه أمام الآخرين سوى إلى حقيقة أنه يعيش في بلد كله بلا كرامة. من جراء حساسيته، كانت هذه الحقيقة تضغط على وجدانه. ووددتُ لو أني أكون أقرب إلى إياس، لا لأنه يرى ضعفه أمرًا نهائيًّا. ولا لأنه تخلى عن ابنه. كما تحدث عنه الآخرون؛ بل كان يصلني من كلماته شعور عميق بالتخلي.

في المرات التي كان يزورنا فيها بعد انفصال صفاء عنه، وانفراط عقد المجموعة، كثيرًا ما قاومت سؤاله عن كيفية تقبُّل أشياء كالموت والخسارة والفقدان. وكلها أشياء لم أكن أتقبلها. أكثر من ذلك؛ أحيانًا لم أكن أتقبَّل حتى السعادة. لهذا ظهر عليَّ أني لست سعيدة باقتراب السفر الذي انتظرته طويلًا. وتلك المرأة التي كانت تشغل نفسها بالاهتمام بالمظاهر، لم تكن إلا هيئة زائفة أخفيتُ بها ألمي.

اقتراب السفر كشف عالمي. وأنا أوزع أغراض المنزل، وألمح انشغال زوجي عني، وددتُ أن أقتله. شعرت وأنا أقترح عليه إن كان يفكر بأن يترك ذكرى لأحد يخصه أو يعنيه من أصدقائه، بأن الأشياء التي تعنيه قليلة. إنه قاسٍ. عدا عن أن جوابه الذي شعرت بأنه موجه

ضدي، كان مختصرًا إلى درجة جعلتني أستقبله استقبال الصفعة، استقبال الحقيقة التي لا محيد عنها:

- نحن مسافران.

وبعد صمت أعقب:

- ما الذي يعنيه أن نترك ذكرى لأحد يخصنا. فنحن لن نكون معه مجددًا.

فاجأني على نحوٍ شعرت بأنه ليس لديَّ ما أقوله. فأعقبتُ بكلمات عامة:

- لكن الناس عادةً يتركون ذكرى عندما يسافرون.

- الناس. وليس أنا. الذكرى خديعة؛ عندما أحب أحدهم، أحب أن يبقى بقربي.

ربما أكثر ما بدأ يقلقني هو اكتشافي أني لا أعرف زوجي بالدرجة التي كنت أفترضها، ويمكن أن أغامر بالقول إني لا أحتمله. عدا أن كلماته؛ كانت تشير إلى ارتباطه بواحدة غيري. كنت مضطربة بالفعل. كنت أعيش حياةً لم أعرف كيف أواجه حقائقها في الوقت المناسب. وتوجد أشياء ما إن يفوت أوانها تصبح كل الحلول فيها حلولًا خاطئة. وفي شؤون العلاقات التوقيت هو المهم، لا الأشخاص فقط. بدا لي وأنا أواجه جملته الأخيرة التي خرجت منه بضغط أسئلتي، أني أُشبه السلحفاة، لا لكوني أخرج من بيتي عارية، وإنما لأني كنت أعيش في قوقعة، وكل ما أقوم به صار متأخرًا. أعرف الحقائق. لكنني أتجنب مواجهتها. وقد احترمتُ نفسي، ولم أسأله عن الأشخاص الذين يود البقاء بقربهم.

صنعنا تجربة غير بسيطة. وأخذنا نشعر بأننا لا نريد أن نسافر معًا. ونفضل البقاء مع الآخرين. وفي مقابل رغبتي بأن نتجاهل إيميل السفارة الأميركية، كانت تنمو لديَّ رغبة أخرى بأن نرحل بصورة فورية عن اللاذقية. كانت الساعات تقتلني. أردت أن أرحل بكل إرادتي. وتلك المشاعر المتضاربة التي سببها غياب التآلف مع زوجي، كانت تقلقني، وكنت أقنع نفسي أنها مشاعر عابرة. وربما كانت كذلك؛ فالمرء يواجه لمرة واحدة خلال حياته لحظة مثل التي كنا نعيشها؛ المرء لا يغيِّر بلده الأم سوى مرة واحدة.

في غمرة مخاوفي وانشغالاتي اقترحت عليَّ أمي، أن أقيم حفلة وداع قبل سفري ما سيجعلني أتقبَّل فكرة الرحيل. وقد أُعجبتُ بفكرة ناديا. وكنت محظوظة لأنني ابنة امرأة جعلتني أتمسك بحقي في أن أعيش قصة حب. مواقف كثيرة في حياة عائلتي كانت لتكون أكثر صعوبة لولا وجود تلك التميمة التي هي الحب، التي كانت تمسح حياتنا في المنزل بالرحمة والود. لكنني أدرك أني فشلت مع زوجي في بناء ما كان موجودًا بين أمي وأبي، وأخذت أفكر أن ما يصنع العائلات هم الأبناء. كنت مع زوجي مجرد شريكين، لم تكن بيننا تلك الروح التي تنتمي إلى كلينا معًا، وتجعل علاقتنا مهددة بالأبدية.

كان في حياتي شيء ناقص. اقترحت ناديا وسط الشعور العام بالخطر والفاجعة، أن أقيم حفلًا. وكان لديها الجرأة أن تقترح حجز صالة صغيرة، وأن نغني مع أصدقائنا، ونرقص. نعم، قالت هذا. ووافقتُ على اقتراحها. لكنني أردت أن أقيم الحفل في منزلي الذي عشت فيه لسبع سنوات أقاوم فكرة إنجاب طفل، والتأقلم مع أمر

ناقص في حياتي كامرأة متزوجة من رجل اعتقدتْ أنها تحبه وأنه يحبها. لسبع سنوات، كنت أضع رغبتي العنيفة بالأمومة في ميزانٍ عقلي، الأمر الذي سلبني شيئًا من طبيعتي. الترويض العنيف لرغبتي بالأمومة، جعلني قاتلة.

أردتُ أن يشهد المنزل الذي كان ملجئي الوحيد خلال تلك السنوات، لحظاتي الأخيرة. وقد بدا لي التخطيط لوداع الأصدقاء في المنزل جزءًا من فراق المنزل؛ فالأصدقاء أشبه بالمنازل. هكذا اعتقدتُ صفاء. وهكذا اعتقدتُ لين، وهكذا اعتقدتُ إياس. أقول اعتقدتُ، لأن الشك طال حياتي كلها. كنت مضطربة جدًّا. وعندما أخبرت يوسف بفكرتي عن اجتماع الأصدقاء، لمستُ ضيقًا في كلماته. وهي ليست كلمات بقدر ما كانت تلويحًا:

- إذن سنسافر؟

كان قرارنا بالمغادرة معًا أكبر منا. لم يكن لدى أيٍّ منا الجرأة للوقوف أمام علاقتنا نفسها، وتعريفها للآخر. وكنت خائفة من أن الزمن لعب معنا لعبته الأثيرة في تفتيت صِلات البشر.

بدأتُ أكره بلدي الذي رمى بنا إلى خيارات قاسية حتمية، لا تَقبَل أنصافًا. فإما أن تغادر، وإما أن تبقى. البقاء في موقع موارب أقسى من أن يحتمله أحد. كنت قد احتملتُ ذلك لسبع سنوات. ولكني تعبت. وأردت أن ألمس العشب الأخضر على الضفة الثانية.

لم يأخذ التحضير للقاء الأصدقاء وقتًا أو جهدًا، أساسًا كان الأصدقاء الذين ما زالوا يعيشون في اللاذقية قليلي العدد. عدا عن تلهفهم للقائنا ووداعنا.

شغلت نفسي بالتحضير للوداع. وأردتُ أن أُعِدَّ كل شيء بمفردي. أخذت أتعامل مع الأدوات في مطبخي تعاملًا وداعيًّا. طلبتُ من يوسف أن أدعو إياس. وارتبك إياس عندما أخبرته عن دعوة العشاء. كنت أعرف أني أحزن عليه وأغبطه في آنٍ واحد؛ لقد خضع لما جنَّبتني إياه الحياة؛ خضع لفقد الأحبة. حتى إنه حَرَمَ نفسَه، بقرار منه، ابنَه. أنا أفهمه. أو أدَّعي ذلك أمام نفسي. اقترحتُ على يوسف أن يدعو لين، وكنت أعرف بأنه يستلطف وجودها في المنزل، وبأنه يريد وداعها.

كان كل شيء اعتياديًّا في مساء يوم العشاء؛ حتى مقتل يوسف بدا اعتياديًّا من غير أن يكون لديَّ دليل على كلماتي هذه. وقد أدركتُ أن حياتي التي كنت أعرفها أو تلك التي أخطط لها، انتهت، وقد أنهيتها أنا... كل شيء مضى مبهمًا وغامضًا، وتَبدَّد في المجهول.

ناديا

فعلتُ ما بوسعي كي تكون حياة ريما مثالية، وشعرتُ بأني نجحت. كانت تبدو سعيدة في مختلف مراحل حياتها. لكن عندما جاء الوقت كي تصير أُمًّا، بدأتْ تظهر آثار تربيتي التي كنت أبالغ في السعي إلى تحقيق مثاليتها. عجزتْ عن أن تكون أُمًّا. وحاولتُ ما استطعت ألا ألوم نفسي. فخَشْيتها من الأمومة دفعتها إلى رفض الأمومة. هذه أحاسيس. نحن لم نتحدث بوضوح، وأقصى ما طلبته مني أن أدلها على طبيب نسائية ماهر، وقد فعلت.

عندما أخبرتني بأنها ستسافر خلال فترة قصيرة، شعرت بأن الدفاعات التي حاولت أن أبنيها خلال حياتي توشك على الانهيار. كنت أحصِّن نفسي بأن أبدو سعيدة دائمًا. وكنت أشعر أحيانًا بأني أغار من ابنتي ومن صديقاتها، لأن الحياة لا تزال كلها أمامهن. لم أكن من أولئك الأشخاص الذين يتقبلون انقضاء الزمن. كان عبور السنين يتعبني. ولم أجد السبيل لإخفاء مخاوفي سوى بأن أصدِّر عن نفسي فكرة أنني إنسانة لامبالية بمشاعر الآخرين. بهذه الصورة، عندما أخبرتني ريما بسفرها، لا أعرف كيف وصلت إلى لساني تلك

الكلمات، من غير أن تَعبر الحس الإنساني؛ إذ أخبرتُ ريما أنني سأبحث عمن ينوب عنها في وفادتي. كانت كلماتي قاسية. بدا أن أيًّا كان يمكن أن ينوب عن ابنتي. ربما أسعفني الحس الساخر الذي داخَل كلماتي من الظهور بأني لامبالية.

كان يمكن لريما أن تصل، من غير عناء، إلى الاستنتاج بأني كنت متألمة لفراقها. كثيرًا ما حمل تواصُلنا وجهين متمايزين. أعرف عندما سارعتُ بالقول لها إني سأبحث عمن ينوبها في زياراتي، أني صعقتها. جمدتْ تعابيرها للحظة. ثم تمالكت نفسها وبدأت تضحك على ما بدا نوعًا من الفكاهة. وإلا فإن كلتينا كانت تعرف أن كلماتي فيها شيء حقيقي، شيء يَجزع من أني سأُترك لأتقادم وحيدة.

حاولت أن ألتزم بالقاعدة التي صنعت حياتي، وهي أن أقوم بالأمور التي تجعلني أشعر بأني أعيش على نحو أفضل. حرصتُ على أن أحضر العشاء الذي نظمته ريما ببراعة، وحرصت على أن أجلس مع الجميع، وعلى أن أبدو صاحبة تلك المناسبة، وكأنها كانت عُرسًا. بدوت سعيدة. ولم أكن أقصد أن أسيء إلى ابنتي. لكن كنت أشعر بأن عليَّ أن أُطمئن ريما بأن الحياة يمكن أن تفتح لها أبوابًا جديدة. ومن بين الضيوف الذين جاءوا إلى المنزل، لم أشعر بأني كنت ثقيلةً على أحد مثلما شعرتُ بأني ثقيلة على نهاد، والد يوسف. ما إن دخل الباب حتى عاجلتُه بتلك الفكرة المستهلكة عن سهولة سفر الأبناء.

لا أجد دراما في ذهاب الأبناء إلى حياتهم، على العكس ينبغي أن تكون هذه لحظات سعادة خالصة. غير أن طبيعة الرحيل الذي

كانوا يُقدِمون عليه، هي التي كانت تؤلم. مع ذلك، لو كنت أعرف أن نهاد لا يعرف بسفر ابنه، لم أكن لأطلق تلك الكلمات التي بدت بلا مراعاة؛ عن أننا، أنا وهو، سننتهي في دار المسنين. وفي ظرف آخر، كان يمكن للرجل الذي تجاوز الثمانين من العمر أن يشعر بالإطراء، من جراء كلماتي التي جعلتنا نبدو متقاربين. قلت له «عجائز» فيما لم أكن قد تجاوزت الخامسة والستين. أما هو، كما يقال، فرِجل في الدنيا، والثانية في الآخرة. لكن عندما واجهت نظراته الخالية الجزعة المتسائلة، سرعان ما انسحبت من مواجهته، وتركت ابنه يدفعه برفق أمامه إلى الركن الظليل الذي سيجلس فيه. كان يرتدي بيجاما منزلية، حتى إنه لم يكلف نفسه عناء أن يرتدي ما هو أنسب من تلك الهيئة التي توحي بأنه غافل. كما لم تكن مراقبته تُشعر المرء بالراحة. دخلت المطبخ أدفع ريما أمامي هاربةً من الموقف المحرج. وفي المطبخ، عاجلتْ بأن تلومني. وشعرت بأنها جعلت الموقف فرصة كي تنتقدني، قالت لي:

– لو تراعين مشاعر الآخرين. ولو الليلة فقط.

– كلماتي عادية. لكنه لا يعرف بسفركما. الحق عليكما. بدا متفاجئًا. لا حزينًا. بدا غير فاهم. وليس مجروحًا.

– ليست كل العائلات كعائلتنا. سهلٌ عليها التصريح بالفراق.

لم تكن أيٌّ منا في مزاج يسمح بدخول سجال من غير طائل. حاولت التجاهل، فهي مضطربة منذ تأكد السفر، ووجدتُ نفسي أستوعب الموقف:

– أنا آسفة. لم أكن أعرف. أعتذر منكِ.

فوجئت ريما. وكان هذا من حقها. إذ لم أتعلم أن أعتذر لها.. وكنت امرأة تمقتها ابنتها في أعماقها. لكن تُظهر لها الحب كي لا تكسر فكرة الأمومة. أعرف هذه الحقائق. ولم أكن أدرك أن هجرة ابنتي سوف تعرِّي مشاعرنا. فجأةً شعرتُ بأن الشعور بالأسف يَطال حياتي. وقد حدستُ بأني سوف أمضي باقي سنوات عمري أعتذر لأسباب توجب الاعتذار، وأسباب لا توجبه. لكن فيما يخص الكهل الذي بدا أنه يمشي كي يتهالك على الأريكة، شعرتُ بالفعل بأن عليَّ الاعتذار له. حاولت أن أحيط به خلال تلك الساعات، ولو أني في داخلي كنت أود ألا أراه. وعندما اجتمعنا على المائدة جلستُ مصادفةً مقابله. وكأنما كان مرتبًا لنا أن تلتقي مصائرنا.

حاولت أن أشتت نظري عن التحديق به. نظرتُ إلى السكين التي كانت أمامه، استغرقتُ بالنظر إلى أن أعطاني إياها يوسف، وقد اعتقد حاجتي إليها. ولاحظت نظرات ريما نحوي، شعرتُ بأني، لا أقول شغلتهما عليَّ، وإنما أثَرتُ لغطًا ما. حاولت أن أشتت خوفي من نهاد. أخذت أنظر في طلبات كل الموجودين. عُدت إلى الدور المعتاد للأمهات أن تمارسه. لكنني لم أكن في تلك اللحظة أقوم بدور الأم التي تهتم براحة أبنائها، إنما كنت أفعل قصارى جهدي للفرار من نهاد. مع أني حاولت أن أشمله باهتمام خاص. وكان نهاد أحد أولئك الأشخاص الذين يجذبون الآخرين إليهم من غير أن يقوم بأي جهد.

كنت أفعل ما بوسعي كي أهرب من حقيقة أعرفها حق المعرفة، وهي أن الخيط غير المرئي الذي يجمعني مع نهاد هو فراق الأبناء.

فيما لم يبقَ لديَّ أو لديه سنوات تكفي كي نبني دفاعاتنا، خاصة بالنسبة إليَّ، فقد جربت الأمومة بنوع من التردد الذي يشوب علاقتنا بالأشياء الحقيقية وسط زيف الحياة. لم أكن أريد أن أفطم ابنتي عني، لم أكن أريد لها أن تكبر، لأنها ما إن تكبر حتى يصير قدَرها أن تغادرني. وربما لم أكن أريد لها أن تنجب، فالأمومة كانت ستبعدها عني. أنا أُم أنانية. أعترف بذلك.

كان الجميع سعداء في أثناء العشاء، يتحدثون بلا هوادة، جميعهم كانوا يتحدثون بلا هوادة، حتى إياس التأم إلى لين وبدا حديثهما معًا فيه خصوصية، تحدثا ربما طوال الوقت. لا أعرف إن كانت تلك طريقتهما في تشتيت قتامة تلك الليلة. أنا أيضًا كانت لي طريقتي في تشتيت الألم. لكن شعرت في تلك الليلة بأن طريقتي خانتني؛ لم أكن تلقائية في حركتي، ضحكاتي كانت مصطَنعة. وعندما كنت أحاول أن أبدأ حديثًا، بدت كلماتي ثقيلة، العجوز هو الوحيد الذي لم يحاول الهروب من مقابلي. حركته كانت صعبة. وإلا لتجاهلني مثلما فعل الآخرون. عجزه كان مؤلمًا؛ عندما أراد أن يومئ لي، سقط رأسه تقريبًا أعلى صدره، وقد أخافني هبوط رأسه بين كتفيه من غير أن يستطيع كبحه ما إن هوى إلى الأسفل. العجز مميت. أتمنى أن أموت قبل أن أجرب العجز.

هذا عبث. الأبناء في كل البلدان يبقون أبناءً. سوف تمنحهما أميركا مكانًا وجنسية أكثر قبولًا في الدنيا. لكن ريما لن تتحرر من مخاوفها إزاء الأمومة في أي مكان على الأرض. قناعتي أننا كبشر، لا نتغير مع تغيير البلدان، وإنما يتضح جوهر أزماتنا.

لا أعرف بماذا كنت أفكر بالضبط عندما قاطَعت سَكينتي محاولات نهاد كي ينهض، وكان عجزه عن التحكم بجسده عجزًا مؤلمًا بكل معاني الكلمة. اعتقدت أنه يريد أن يمضي إلى الحمَّام. ناديتُ على ريما كي تأتي، لأنني خشيت مواجهته والاقتراب منه بمفردي، ثم عندما تأخرتْ عن المجيء، قمتُ بنفسي، وحاولت مساعدته في التوجه إلى الحمَّام. لكنه أخذ يقاومني بقدر ما استطاع. ونحن على باب الحمَّام بدأت أفقد السيطرة على جسد الرجل الذي بدا أنه يعرف ماذا يريد. وفي الآن نفسه، غير قادر على القيام به. وقصارى جهده أن يعيق التقدم البطيء الذي كنت أحرزه معه باتجاه غرفة نومه.

في منتصف الردهة، عند مسافة عن باب غرفته، بدأت أنادي يوسف. وكان نهاد بين يدَي يحاول التحرر من قبضتي عليه. أخذت أحيط به، حتى إني ضممته، وحاولت تهدئته. بدأت أصرخ وأنادي ريما ويوسف من غير أن تصلني إجابة منهما. وكان الرجل الكهل مضطربًا، حتى أخذت أشد جسده إليَّ. وبدأت ألثمه، ألثم يديه، وكأنما صار طفلي. لم أفكر أين ذهبت ريما في تلك الأثناء، ولا زوجها. شعرت والرجل مضطرب بين يدَي بصورة لم أعهدها من قبل؛ بحاجتي إلى الهدوء وتأمُّل حياتي، فكرت بالراحة قليلًا. فكرت بأن أتركه وأعاود الجلوس، لكنني لم أقدر على ذلك. بل أخذت تقريبًا أحمله إلى الغرفة، كي يرتاح على السرير، ولم أتوقف طوال تلك المدة عن مناداة يوسف وريما.

شعرتُ به يتململ، من صوت أنفاسه التي لها صفير أخذَ يتصاعد، قبل أن أنظر إليه وأراه بوجه ازداد تورُّدًا. مشيت به خطوات

باتجاه غرفة النوم، وأنا تقريبًا أحمله. لكن تصلَّب جسده مقابل باب المنزل. حاولت دفعه باتجاه غرفته. حتى أفلتت يدي من تحت ساعده. لم يكن بمقدوري أن أحمله بمفردي، تهاوى أخيرًا بين يدَي. ومتأكدة من أن والد يوسف شعر بمقتل ابنه قبل أن يحدث، وانهار مع مجيء الموت.

نهاد

جاء بي يوسف وأجلسني في ركن مهمَل من صالون منزله، وكنت أسمع صوت زوجته ووالدتها في المطبخ. فيما كان يتجول في المنزل يأخذ غرضًا ويعيد آخر. كنت أراقبه، من غير أن نتحدث. لكن لم يبدُ لي كشخص مسافر؛ كان منهمكًا بكل حواسه في ترتيب المنزل بانتظار مجيء أصدقائه الذين بدأوا بالتوافد.

بدأتُ منذ مدة، أشعر بالوقت يمر بطيئًا من حولي. ما جعل كل من يتطوع بالعيش معي يعاني صعوبات فرق التعامل مع الزمن بيننا. بالنسبة إلى رجل كهل ينتظر موته، كان الوقت يزداد بطئًا يومًا بعد آخر. وكنت أشعر بأني أزحف، لا أسير، إلى نهايتي. أعاني من ضعف جسدي. ألمح الأشياء تتحرك من حولي بالسرعة القديمة ذاتها، من غير أن أستوعب عبورها، أبنائي سافروا، زوجتي تُوفيت لم أعُد أذكر منذ متى.

أخذت أنظر إلى يوسف وهو يتجول في منزله. يأتي ليلمسني بين فترة وأخرى، فيما كنت أنظر إليه من غير قدرة على أن أخفي حزني. خلال أيام سيسافر، وسوف أفتقده. لم تكن هذه النهاية التي أردتها

لعائلتي الكبيرة التي نشأت بصورة تقليدية؛ لأب يجلس في مقدمة المائدة وأبناؤه يتحلقون حوله.

لا أجد سببًا كي ألوم يوسف لأنه أخفى عني سبب دعوتي، شقَّ عليه إخباري بسفره. لكن كان قاسيًا عليَّ أن تخبرني ناديا، وهي تُربِّت على كتفي:

- هذه سُنة الكون، الأبناء يسافرون. ويتركون لنا ذكرياتهم أطفالًا. ونحن ننتهي في دار المسنين.

لم يكترث يوسف بعدم فهمي كلماتها. ولو أن البطء وصل دماغي في تحليل الأحداث التي تجري أمامي. لكن بقي لكلماتها عن سُنة الكون ذلك النذير الذي يُحْدثه القضاء والقدر في حوادث الموت. وعندما دفع بي يوسف إلى الداخل متجاوزًا السيدة ناديا، نظرتُ هلعًا باتجاهها، ولا تزال كلماتها الغامضة تضرب وعيي البطيء، وتحاول إيقاظه. كما لمحتُ في نظراتها صوب يوسف نظرات استفهامية. وما إن أجلسني يوسف على الأريكة في الركن المهمَل، حتى أخبرني بكلمات متعجلة:

- خلال أيام سأسافر. لكنها فترة، فترة مؤقتة. لا تنشغل عليَّ. وستبقى في بيتك، لا في دار المسنين. ناديا تتحدث من عندها.

لم يكن مضطرًّا لأن يشرح لي. وعلى الرغم من جهد كلماته، داخَلني الشعور بأنه يكذب عليَّ. إخوته ودَّعوني بالكلمات نفسها، لكنهم لم يعودوا. قررت الانشغال عما عصف بي، وبدأت أراقب دخول المدعوين، وكانوا يخبرونه كلمات عن الوداع ما إن يلتقيهم بجوار الباب. لم أتفهَّم مقدرته على تركي جاهلًا وسط هؤلاء

العارفين. شعرتُ من دون مقدمات بأني بعيد عنه، ورغبت بالمغادرة، لولا أن جاءت ريما وجلستْ إلى جواري، وأخذت تحدثني عن أشياء عادية تشبه الحياة التي أعرفها؛ كصعوبة إيجاد كراتين لتجمع الأغراض التي تريد توزيعها، وحديثها إلى تاجر دخان لديه وفرة من الكراتين. وقد شعرت بحديثها بأنني قريب منها، وبأنها تحب اللاذقية. كما أخبرتني شيئًا عما تركته لي. لكنها لم تستمر بالحديث بالتفصيل، أو ربما تحدثت. لقد نسيتُ. لا أتذكر كل تفاصيل الحديث. المؤكد أن لها أسلوبًا يراعي الآخرين. وكنت بصعوبة أُبعد عينَي عن يوسف، وأراقب تحاشيه النظر إليَّ. وقد وددتُ المغادرة، لولا أن السيدة ناديا جاءت وجلست على أريكة مقابِلة للأريكة التي كنت أجلس عليها مع ابنتها ريما، وأكملتْ حديثها المقيت الذي أرادته تلقائيًّا:

– لن يبقى غيرنا في البلد. أفضل. دعهم يعيشون. نحن أخذنا نصيبنا من الدنيا. والحال هنا لا تسر الصديق. مكتوب عليهم أن يسافروا.

ابتسمتْ بعد ذلك، وشعرتُ بأنها تجاملني. وكان هذا لطفًا منها. لكنني شعرت بها محرَجة، أومأتُ لها برأسي، لأن النطق كان صعبًا عليَّ. لم أشَأ أن أزيد من اضطراب السيدة اللطيفة التي كلفت نفسها عناء قول تلك الكلمات لي وسط انشغالات الآخرين. فاكتفيت بأن أومئ برأسي على نحوٍ أعتقد أنه بدا مبالَغًا به. أحنيتُ رأسي، ووجدتُ صعوبة في إعادته. ربما انتبهت السيدة إلى صعوبة تحكمي بأجزاء جسدي، فنهضت من أمامي كي لا تسبب لي الإحراج. لم تساعدني على أن أعاود الجلوس كما كنت. فقط فرَّت جزِعةً من أمامي. وجسدي بقي يخونني.

أردتُ أن أشاركهم أحاديثهم، وربما كنت لأقصَّ عليهم شيئًا من القصص التي أتذكرها عن شبابي مثلما كنت أفعل عندما كانوا يجتمعون في المنزل في زمن لا أحسبه بعيدًا. وددت أن أنهض. ولكن ضيوف يوسف وزوجته كانوا شديدي اللطف؛ ما إن يلمحوني أجلس على الأريكة في مكان صادَف أنه ظليل بسبب توزيع الإضاءة في المنزل، حتى يجيئوا إليَّ ويجلسوا إلى جواري. لم تكن لديَّ تلك القدرة على متابعة أحاديثهم كاملة. كان مهمًّا بالنسبة إليَّ أنهم يشعرون بوجودي. أراد يوسف إبعادي عن الضوضاء. أراد راحتي، حتى إنه تركني بالبيجاما المنزلية. وأنا راضٍ عنه كل الرضا.

حاول يوسف دائمًا أن يجنبني الشعور بالعجز، كان يعرف بطريقته أنني بأفكاري القديمة لا أصلح لمعارك اليوم. وكان يعزُّ عليَّ سفره، مهما أنكرتُ؛ أردت له أن يبقى بأي صورة كانت، وهو ما لم أشعر به حيال أيٍّ من إخوته الذين سافروا. عند زواجه، اختار امرأةً تهتم بصورته وبمظهره. وكان يبدو لنا واثقًا في علاقته معها. كان يعرف كيف يدير حياته. لم أجد مسوِّغًا لسفره. لكن الأبناء لا يقولون دوافعهم الحقيقية لآبائهم. وشعرت بغير أن يُضطر إلى الشرح؛ بأن سفره أمرٌ حتمي. وكأنما مفروض عليه.

شعرت بأن كل تفصيل في العشاء كان مرتبًا له. في تلك الساعات التي خرجتُ فيها من حيز البطء، اكتشفت المصير الذي ينتظرني. آخر أبنائي مسافر في غضون أيام؛ أُغالب الحزن في نفسي، فأنا أعرف أنهم غير جيلنا، ولن يقبلوا العيش في بلاد ظالمة؛ لكثرة ما قست على أبنائها فكّكت العُرى معهم. شعرتُ بأن جميع الحاضرين يعرفون

مصائرهم، من ضحكاتهم، والثقة في أصواتهم عندما تناوبوا على الحديث إليَّ بدافع من اللطف. جاء يوسف وجلس إلى جواري. لكنه لم يُطِل جلوسه. كان مشغولًا ومتوترًا. على الرغم من ضحكاته إلا أن جزَعًا كان يخرج من عينيه، يكاد يكون شبيهًا بالذي أراه في مرآتي، أقصد، جزَع اقتراب الموت. شعرت بأنه يحدس بالخطر، لكن لم أكن لأستطيع أن أفعل له شيئًا.

المؤكد أني لن أُشغله بأمري إن كان سيضعني في مأوى عجزة، أو سيتركني في المنزل في المشروع الأول. حيث أخذ لي منزلًا أرضيًّا منذ سنوات في جوار والدة صديقه إياس، ما وطَّد علاقتي مع إياس. لكن لم يكن من حقي أن أنتظر من أيٍّ من أبنائي أن يضحي من أجلي. ويبقى إلى جواري. الحرب قتلت بلدهم.

لا أعرف مصير الأراضي التي تعبتُ في شرائها، والبيوت التي تعبتُ في تجهيزها من أجل أطفالي. كل شيء ضائع. يا لها من مرارة نافذة إلى القلب مباشرة. مع ذلك، لم يكن مصيري يشغلني. لكن الأشياء التي هدرتُ عمري وأنا أجمعها من أجل أبنائي أخذت تشغلني، مَن سيسكن البيوت التي بنيتها من أجلهم، مَن مِن أبنائهم سيلعب في الحقول التي زرعتها. بدأتُ وأنا أرى صمت يوسف وهو يأتي ويذهب من جواري أُدرك أن حياتي ضاعت هباءً؛ لا لأنهم سافروا جميعًا. وإنما لأن بيوتهم سوف تبقى بيوتًا خالية. وأن يتركني يوسف في دار العجزة، أراه أكثر رحمة من أن يضعني في أحد البيوت الفارغة التي بنيتها لأجلهم. لا للغرباء.

لا أعرف لماذا بدأتِ الأفكار حيال مصيري تخنقني، لا أحد يأبه

بي فعليًّا، وإنما كانوا يجيئون إليَّ بدافع الشفقة، ولكنهم لا يطيقون مواصلة الحديث مع الرجل العجوز البطيء الذي ينتمي إلى عالم غير عالمهم، ويخرج منه بين لحظات الصمت صوتُ أنفاس أشبه بالصفير، وكأنما هو صفير الموت.

كان إياس مِن بين مَن جلسوا إلى جواري، وكانت معه بنت بدت لي مرتبكة. شعرت بأنها مثلي تريدُ أن تغادر، وقد التقطتُ في تلك اللحظات التي كان دماغي نشيطًا، الشعورَ المشترك بيني وبين البنت التي جلست على مقربة مني. لم يكن لي أن أعرف الأمر المشترك بيننا. لكن ظلال الفقد والحيرة كانت تهمي على وجهها. كانت مثلي. تحاول السيطرة على الذعر الذي ينشبه اقتراب رحيل الأحبة.

جلس إياس إلى جواري تمامًا. وشعرت وهو يجلس إلى جواري صامتًا من غير أن يتكلَّف حديثًا مع رجل عجوز، بخصوصية العلاقة القديمة التي نشأت في منزل العائلة قبل أن يرتبط بالسيدة التي تركته. زوجتي فارقتني بسبب الموت، وكنت أعتقد أن الموت فقط هو ما يدعو أحدهما لفراق الآخر ما داما تشاركا الأبناء، فالأبناء رِباط لا يزول؛ حتى بموت الأزواج يبقون في ذاكرة أبنائهم كأم وأب. الأمومة والأبوة تنتزع شيئًا من طبيعة النساء والرجال الذين ينزعون إلى الحرية، إنها تقيدهم، الرجال يصبحون جبناء، والنساء يصبحن حزانى.

لا أذكر أحدًا بقي حيًّا من جيلي. ولا أعرف لماذا لم يؤجل آخر أبنائي سفره إلى أن يودعني تحت تربة صلنفة. عام أو عامان لن يُحدثا فرقًا في حياته التي بقي فيها الكثير. أما بالنسبة إليَّ، فعام أو عامان قد يكونان كل ما بقي لي.

أكثر ما لمسني من بين الحضور إلى جانب البنت التي كانت ترافق إياس، صمتُ إياس إلى جواري، وهو يتأمَّل صديقه وزوجته يتحركان في فضاء المنزل. أتاحت له العتمة النسبية التي كنا نجلس فيها أن يغيب عن جو الحاضرين في عالمه الخاص. ربما كان يفكر بأسرته في مكان آخر من العالم، ربما كان يفكر باللحاق بهم. كان يبدو أن المغادرة تحدث بالعدوى. من يرحل يترك وراءه انطباعًا بأنه يرحل كي يجعل خطوات الباقين سهلة.

أردت أن أغادر منزل ابني من فوري، لا إلى منزلي، وإنما خارج الدنيا. أن يفقد المرء إيمانه التجربة الوجودية الأصعب التي قد يخوضها. أنا بلغت هذا العمر، ولم أفقد إيماني. لا أريد أن أفقده بمغادرة آخر أبنائي.

أردتُ النهوض والمغادرة ما إن أخذ إياس البنت التي كانت برفقته، وغادرا. لكن جسدي لم يطاوعني على المغادرة معهما. وشعرتُ بأنهما أكثر المدعوين شبهًا بي، خصوصًا تلك البنت الحائرة التي غادرت فيما عيناها مثبَّتتان تثبيتًا، وكأنما بالمسامير، بوجه ابني يوسف. كما لامستني الطريقة التي ترك فيها إياس صديقه يوسف، ربَّتَ على ساعده، ومن ثم ابتعد عنه كأنما سيلاقيه صباح اليوم التالي. كان وداعهما مؤثرًا. ربما قال له كلمات من قبيل: «انتبه إلى نفسك». لكن لم يقل أكثر من ذلك. كان وداعًا عذبًا. فيما أخذت لين تتحاشى ابني يوسف في اللحظة الأخيرة. كما لو أنها لم تكن تريد له أن يغادر، كما لو أنها لم تكن تصدق رحيله.

كان رحيل يوسف أشبه بالخديعة، يجرح وجدانها. أو ربما كان

نهارها سيئًا، مع أن هيئتها كانت جميلة، وكان واضحًا اعتناؤها بطلَّتها. ذكَّرتني ببناتي؛ كنَّ جميلات ويهتممن بإطلالتهن حتى لو خرجن من المنزل مستاءات.

وددتُ أن أبكي. وكنت أحدَ المعارف الذين اجتمعوا في ذلك المساء. ولا يوجد ما هو مشترَك بيننا، حتى أحزاننا، لم تكن أحزانًا متشابهة. ربما استخدمتُ الكثير من الكلمات كي أصف شعوري وأنا أراقب مغادرة أخلص أصدقاء ابني مع صديقته. غير أن سهرة العشاء الأليم تلك، اختلفت بعد مغادرتهما، ولمحتُ نفسي أدفع نفسي دفعًا من أجل العودة إلى منطقة البطء؛ ما حدث بعد مغادرة إياس ولين، كان صعبًا عليَّ فهمه.

دخل نذير، وكنت أعرف صِلاته مع مراكز القوى المتعددة في المحافظة وخارجها منذ عملي في مكتب المحاماة. وكان تناقض علاقات نذير يشغلني. وهو رجل حريص على هندامه، يدَّعي شيئًا من الثقافة، وأخيرًا يصرِّح بمقته لأجواء عمل الأمن. مواصفات مخابراتية بامتياز! كان من أولئك الأشخاص الذين لا يعوقهم شيء عن فعل ما يريدونه، وهذا أمرٌ يثير التساؤل حيال طبيعته.

كنت أتحاشى التعامل مع نذير في شؤون العمل. أمرٌ لم يفعله يوسف. لكل زمان رجاله. كنت أريد أن أتقاعد بهدوء وأرى أبنائي إلى جانبي. لكن المكتوب يجب أن تراه العين. ولم يمضِ وقتٌ طويل، يمكن أن يكون دماغي الذي حاول العودة إلى منطقة البطء، قد قرأها دقائق لا أكثر؛ بين دخول نذير منزل يوسف، وبين وقوفهما في الردهة، حيث كنت أراقبهما من مكاني، تحدثا حديثًا لم يبدُ لي

وديًّا، وكأنما كانا يتفاوضان في نقطة عالقة. في وقت كانت فيه ريما ووالدتها منشغلتين بترتيب الفوضى التي تركها الأصدقاء. كانت ريما تتحرك على مقربة مني. وطالما نظرتُ إليها كما لو أنها إحدى بناتي. كانت تتجنب إزعاجي بحركتها، اعتقدتْ أني نائم، ولم أكن نائمًا. كنت لجأتُ إلى منطقة البطء، تجنُّبًا لرؤية الضيق على ملامح ابني. وتجنُّبًا لعجزي عن القيام بشيء من أجله. أردتُ أن أنهض، وأقف إلى جانب يوسف الذي تركه حديث نذير محطمًا وحائرًا. لكنني لم أستطع النهوض، ذهبت ريما، وتحدثت إلى زوجها، ثم خرجت مستاءة. وسرعان ما لحق بها قلِقًا وحائرًا، وعن السر الذي جمع الثلاثة سوف يبقى مجهولًا.

مع خروج يوسف تحركت يدي باتجاه ناديا التي كانت تجلس مقابِلة لي. ربما تحركت شفتاي كي أطلب منها مساعدتي على اللحاق بيوسف الذي خرج وكل ما فيه يُنذر بعدم العودة، لم أكن أريد أن أقول بالموت الذي بِتُّ أعرف وجهه. وعندما انتبهت ناديا لحركتي، وجدتني مرتبكًا وعاجزًا، أريد أن أنهض، وأن أتحدث، اعتقدتْ أنني أطلب مساعدتها للدخول إلى الحمَّام. مدَّت لي يديها. حاولت أن تسندني للنهوض، ثم نادت على ابنتها وعلى يوسف من غير أن تأتي إجابة منهما. خانني جسدي. كل ما فيَّ بدأ يخونني. عند باب الحمَّام حاولتْ دفعي إلى الداخل، بلطفِ سيدة عرفت نعمة الحب، لم تُشعرني بأني ثقيل وغير محتمل. فقط، تساءلتْ بلطف عن غياب يوسف وريما.

لم أطاوعها لدخول الحمَّام، فأخذتني من تحت يدي باتجاه غرفة

النوم، وقد اعتقدتْ أني أريدُ النوم. كنت بالفعل أريد نومًا يأخذني إلى زوجتي، يأخذني من مخاوف العيش في دار المسنين. ودماغي ما إن رأيتُ إيحاء عدم العودة على ملامح ابني، فجَّر منطقة البطء، لا أعرف من أين جاءت القوة إلى جسدي كي أنترَ يدَي ناديا من حولي، التي أخذت تلثم يدَي ووجهي، وكأني طفلها؛ كل ما فيَّ كان خائفًا حتى أنفاسي، الصفير الذي يخرج معها صار صفيرًا متواصلًا. لم يَعُد الأوكسجين الذي يدخل رئتَي، يكفيني.

كانت طبولٌ تَقرع في رأسي، طبولُ قبائل جمعتِ الأطفال وأشعلتِ النيران، وتعالى صياح رجالها؛ بين أيديهم هراوات، وفي رؤوسهم دماء حامية. رأيت القبيلة البدائية تأخذ أحلى أطفالها، تُعلقه فوق خشبة، تضعُ المسامير في يديه، ومن حوله يضرب الطبَّالون الدفوف. الحق أقول لكم، كانوا يتحدثون بلسان الموت. يدورون عنوةً في رأسي، ولا يتوقفون عن الصياح. وقد صِرت في لحظة أخرجَ فيها البطءُ كل ممكناته، إنسانًا آخر، إنسانًا يدقُّ في فؤاده صوت الموت، وكل مخاوفي أن يكون ابني أضحية لموات الحرية.

أخذت أزبدُ بين يدَي امرأة ضعيفة، تتساءل بحيرة ولطف عن غياب ابنتها وزوج ابنتها. كل ما فيَّ كان خائفًا. وأنا أُراقب القلق على وجه ناديا، خرجت مني كلمات واضحة، طلبتُ منها اللحاق بيوسف وريما. مع أنها كانت كلمات واضحة في رأسي. لكنها لم تفهم ما أقصده، كانت تعتقد أني أخاف سفر يوسف. وسفره هو أكثر ما أردته منذ رأيتُ نذير، ولو كنت أستطيع لأوصلت ابني بيدَي إلى الطائرة.

فجأة شعرت بسذاجة عواطفي. لا أذكر أن يوسف نظر إليَّ بصورة

مباشرة في ذلك المساء، سوى عندما كان يساعدني على انتعال حذائي في منزلي، حيث تلاقت نظراتنا. لمستُ أسفه. وبينما جسده يُرمَى من سطح البناء بدأتُ أفهم أسفه. لم نسمع طلقًا ناريًّا، وإنما صوت قوي لارتطامه بقرميد الشرفة، ومن ثم صوت خفيض، حدستُ به، لارتطام جسد يوسف بالأرض، صوت يكاد أن يكون صوتَ الأسف؛ عميقًا وهادئًا، يصلح أن يكون نهاية لحياة صاخبة.

telegram @
yasmeenbook

بيان وزارة الداخلية

بتاريخ الخامس عشر من شهر تشرين الثاني من عام ٢٠٢١ أقدَم المحامي يوسف الشهَّال على الانتحار من سطح البناء في حي الأميركان. والتحريات جارية لمعرفة ملابسات الحادثة.

الفصل الثاني
العَتبات

العتبة الأولى

كان يمكن لحياة مثل الحياة التي كان يوسف يعيشها أن تفضي به إلى الانتحار. وكان يمكن قبول فرضية الانتحار، لو أنها لم تخرج من وزارة الداخلية؛ فالإسراع في إعلان الانتحار، جعل الحادثة تدور في فضاء الجريمة العامة التي كان يشهدها البلد ككل.

خرج إياس من مكتبه باكرًا ما إن قرأ خبر الانتحار. وفكر بالمضي إلى منزل يوسف للعزاء به. أو بالأحرى، كي يُعزَّى به، فقد كان أقرب أصدقائه. لكنه أحجم عن ذلك، وعاد إلى المنزل كي يقف إلى جانب لين، وهي تتلقى خبر الموت، أو كي يرى وَقْعه عليها. ولم يخطر له أن يكون لجوؤها إليه مرتبطًا بحادثة الوفاة، كما لم يفكر بأن الاتصالات التي أهملها صباحًا كانت مرتبطة بالوفاة.

في صالة المعزين كانت ريما ووالدتها تتلقيان كلمات الناس الذين كانوا متوجسين من حادثة الوفاة، ولو أن الحديث عن الانتحار اقتصر على بيان الداخلية. بالنسبة إلى المعزين، طريقة الموت ما زالت ملتبسة. ظهر نهاد بهيئة تناسب العزاء، وقد ساعده أحدهم على ارتداء طقم رسمي. لكنه كان غائبًا بالكامل عما يحيط به. جميع من حضر

كانوا واجمين، وكأنهم ينتظرون معرفة تفصيل قادم من عالم الموت نفسه. عن سببه. عن حقيقته. عن طريقته. أو أي تعقيب يجعل الحادث مقروءًا. موتُ يوسف لم يكن يصدَّق بسهولة.

دخل إياس منزله، كالمعتاد، دون أن يطرق الباب. وعندما أصبح في الردهة، نادى لين التي كانت مستلقية على الأريكة، تتأمل لوحة الأرملة المعلَّقة على جدار يخلو من النوافذ. سارع إياس إليها. ضمَّها بلا كلمات، وقد عرف من هيئتها أن الخبر سبقه إليها. وضمَّته بيديها الناحلتين. بقيا صامتين للحظات، يواجهان حرقة الموت الذي جعلهما أقرب. جلس على مقربة منها. وأخذا يتحدثان عن يوسف، وقد تجاوزا فكرة الانتحار. الجميع يعرف القتَلة. وفي الوقت نفسه، لا أحد يشير إليهم. أو ليس بمقدور أحد الإشارة إليهم. هكذا كان حضور الموت في اللاذقية، أشبه بالطيف الذي لا يستطيع أحدٌ تخمين أيَّ البيوت سيزور في اليوم التالي؛ كانت مدينةً استبَاحتها الجريمة.

لم يستغرق إياس أو لين وقتًا لترتيب موقفهما من الحادثة. طلبتْ منه ألا يتركها بمفردها. وطلب منها ألا تتركه وحيدًا أمام المفاجأة. ثم طلبت منه أن ينتظرها كي تذهب إلى غرفتها في المارتقلا، لترتدي ثيابًا مناسِبة لواجب العزاء. بعد أن مضت ساعات على الموت؛ أصبح طقسًا.

اقترح عليها أن ترتدي ثوبًا من خزانة صفاء. ران صمتٌ بينهما. قَطَعته بحركتها إلى غرفة نومه، هو وزوجته السابقة. من غير أن تثير حركتها المباشرة صوب الخزانة أي تساؤلات لديه. بدا أنها صاحبة

المنزل. بدا أنها تتحرك في حيزها الحميم. راقبها من موقعه، وهي تفتح باب الخزانة، وتنتقي من ثياب زوجته السابقة، التي أدرك أن غيابها صار حقيقة آنذاك. ثم رأى لين تغلق باب الغرفة. كي تبدل ثيابها. وكاد أن ينادي عليها، ألَّا داعي لتغلق الباب بينهما. بحضور الموت الصاعق، اختل شيء في منطق الحياة الرتيب. وكأنما خَلت حياة الغريبين من الأسرار. هكذا بدأ يشعر تجاهها. وكذلك كانت هي. لكن لم يكن واردًا بالنسبة إلى فتاة غريبة أن تبدل ثيابها أمام رجل غريب عنها. مع أنها تعرف طبائعه وحكاياته. لكنها لم تكن تقوى بعدُ على مصارحته.

حاول إياس الانشغال عن لين. لكنه لم يقوَ على ذلك. سرعان ما توجه إلى الباب، وسألها بصوت خفيض إن كانت تحتاج إلى مساعدته. نفت حاجتها إلى المساعدة. سرعان ما خرجت من الغرفة، وكان متوقعًا أن يقع على شَبه مع زوجته السابقة. إلا أنه وجد أمامه فتاةً ملأت بحضورها الخاص الأثواب القديمة. وكان شاقًّا على إياس أن يدرك رغبته بها في تلك اللحظات. إلا أنه تحاشى الاستغراق في مراقبتها، وهي تجتازه إلى الصالون. حيث تبعها. وخرجا من المنزل للوقوف إلى جانب ريما. وقد خرجا معًا، وكأنهما متزوجان. حتى إن لين، قبل أن يخرجا، اقترحت على إياس تبديل سترته بواحدة أكثر مناسَبة لطقس الموت. لم يكلف الرجل نفسه عناء الذهاب إلى الغرفة. إنما مِثل أي أعزب، كان يراكم ثيابه في الصالون. فقط توجه إلى طاولة الكي، حيث رمى السترة التي ارتداها الليل الفائت، وأعاد ارتداءها. من دون أن يقف على المفارقة التي جعلته يرتدي

الرداء نفسه في مناسبتَي الحياة والموت. لكن لين بينها وبين نفسها تساءلت عن مفاجآت الحياة، عن اختلال رتابتها بالموت، عن ألاعيب الموت. وقد كانا ذاهبين في تلك الظهيرة لوداع يوسف، وداعًا أبديًّا.

سرعان ما تركت النهاية الواضحة لحياة يوسف لدى لين بعض الارتياح. إذ لم تعدم الفرصة لإنهاء حكايتها معه نهاية لا مردَّ عنها. توجهت للمشاركة في العزاء، معتقدة أن حكايتها مع يوسف انتهت بموته. فهي ليست زوجته، إنها عشيقته. لم يترك لها الموت سوى أن تعزي زوجته مثلها مثل الغرباء؛ بل كانت مجبَرة على إخفاء حزنها. ولولا الترتيب غير المُعَد له لوجود إياس إلى جوارها، لكانت أكثر ضعفًا من أن تذهب وتعزي بيوسف. إلا أن الحياة التي أخذت يوسف، أحضرت إياس. ولم تعدم الفتاة المواساة. سرعان ما سمحت للموت أن يضع النقطة السوداء في نهاية حكايتها.

كان إياس يجلس أمامها إلى جوار السائق، في طريقهما إلى حي الأميركان، حين أخذت تفكر به؛ وحيدًا من غير زوجة ولا ابن ولا صديق، مبتهجًا لسبب لم يكن بمقدورها تخمينه. لكنها لم تستطع أن تغفل عن حقيقة أن إياس كان مبتهجًا في الطريق إلى العزاء في ظهيرة السادس عشر من تشرين الثاني.

كانا يبدوان مثل زوجين. وقبل أن يدخلا صالة العزاء التي يتوزع النساء والرجال في جناحيها، تقاربا، تحدثا كلمات بعُجالة وبصوت خفيض عن وقت المغادرة، وكانا متفقين على عدم المغادرة قبل أن يغادر الجميع. وقبل ذلك، وجد كلٌّ بالآخر في تلك اللحظات

العصيبة؛ روح الرفقة. كما راحا بكلمات عَجلى، يؤكدان لبعضهما، أنهما سوف يبقيان إلى جوار ريما. على الرغم من طقوسية مناسبة العزاء، فإن فيها شيئًا لا تبهتُ حدَّته. ليس مشاركة الآخرين أحزانهم فحسب، وإنما الحدث ذاته يمثل طقس البشر في تقديس العادات، وكأنما البشر خُلقوا كي يتبادلوا العزاء.

هكذا دخلا الصالة وفي داخلهما تموج الجنازة. توجه إياس من فوره إلى نهاد. وقد ساعد قرب إياس من والد يوسف، ومعرفته لتفاصيل يومياته على الاستنتاج بأن ريما هي من ساعدت الرجل على ارتداء ثياب مناسِبة. وتخيَّلهما وحيدين يواجهان خلو المنزل من يوسف. تخيل ريما بمفردها تختار لوالد زوجها هذه المرَّة ماذا يلبس في وداع ابنه. وكان موت يوسف مفاجئًا إلى درجة وجد معها صديقُه الوقت للتفكير في ثياب الكهل. ووجد آخرون الوقت للحديث بتفاصيل نافلة صغيرة، لولا فُجاءة الموت لَما انتبهوا إليها.

توجهت لين إلى ريما، وانتبهت لبكاء من نوع لم تألفه، كانت الدموع تنزل بصورة بدا أنها تجري من نبع العين التي فقدت أحبتها. وكانت ريما تتحدث إلى من يجاورها، تلتفت، تتقبَّل كلمات العزاء وعبارات المواساة، وخيط دموعها لا يتوقف. حتى إنه لا يرتجف. وكأن الدموع التي تسيل جزءٌ من الخد. لكن عدا الدمع المتواصل، أمكن للين أن تقول إن صديقتها ريما، لم تكن حزينة.

كانت الجنازة التي حاد عنها إياس صباحًا جنازة صديق حياته، وكان ساهيًا في شؤونه، ونشوانَ بزيارة لين له. الأمر الذي جعله يقسر نفسه على عدم الانتباه إلى الجنازة؛ بل استمر يقسر نفسه على فكرة

أخرى، أقرب إلى الحياة منها إلى الموت. وهي العودة إلى المنزل حيث لجأت إليه فتاة بدت أول ما رآها قادمة من عالم زوجته السابقة، وكأنها طيفها، كأنها قادمة من منام سبق أن رآه.

لم يخطر لإياس أن يثير تجنبُه الجنازة تساؤلات مَن رأوه يمر بجوار النعش الذي يهم بوداع مدينة أتخمها وداع أبنائها في الحرب الطويلة، من غير أن يفكر بالالتفات إلى النعش. وكان قريبًا إلى درجة لم يكن ثمة من داعٍ لمناداته؛ من رآه يسير باتجاه الجنازة، اعتقد أنه قادم باتجاههم. ومن رآه يمر بمحاذاة الجنازة، اعتقد أنه على وشك أن ينضم إليهم. ومن رآه يتجاوز الجنازة، اعتقد أن الحزن على صديقه، أنقص من إدراكه. لكن هذه الالتفاتة عن الجنازة، العبور إلى جوارها وتجنب المشاركة بها، لم تصل إلى درجة الشبهة. بقي سلوكه غير مفهوم. وربما قدومه إلى العزاء، وجلوسه مع أهل المُتوفى، واستقباله المعزين الذين كانوا يوجهون إليه كلمات الرثاء، بدَّد بعض حيرة أولئك الذين رأوه يتجاهل الموت العابر إلى جواره.

لكن هذا شيء، وطي التغافل عن الجنازة شيءٌ آخر. فالناس تفترض أشياء عن الواقع، عن حياة الآخرين وسلوكهم. الناس تتحدث. وهذه طبيعة عامة كي لا أفترض أنها خاصة بأهل اللاذقية؛ إنما في كل المدن الناس تفترض أشياء عن حياة الآخرين. وربما حاجة البشر هي الأسئلة، لا الأجوبة. ولو أنها هنا، أسئلة أنتجتها الجريمة التي ترتبط بالموت والعار معًا.

استمر من رأى إياس يُحايد الجنازة صباحًا بالإشارة إليه، والتهامس حياله، فيما كان هو جالسًا يستقبل المعزين ويتلقى

كلماتهم، ويشكرهم على مواساتهم الصادقة بالموت الذي يَلفُّهُ الغموض. أيضًا كانت الشبهة تدور في مكان آخر، ليست شبهة بقدر ما كانت تساؤلًا آخر حول الفتاة التي عادت إلى منزل يوسف بعد أن غادر المجتمعون. ومن غير أن تعي أو تعرف، صارت لين محطَّ تساؤل الشبان الذين رأوها عائدة ليلًا، مضطربة حائرة، وكأنها كانت بالفعل، مُقدِمة على القيام بجريمة قتل. هكذا قيل في الليل الفائت بصوت عالٍ بين الشبان، وهم يتضاحكون. وهو الأمر الذي قيل في صباح الجنازة. لكن همسًا بين الشبان الذين رأوها. فالموت أضفى على الأشياء بعضًا من الرهبة والصمت.

لم يسارع إياس إلى عزاء ريما. ومع مضي جزء من النهار، لم يرَها. رآها أخيرًا، وهو يُشيع أحد المعزين إلى باب الصالة. كانت تقف هناك. تنفرد بالحزن في ركن، وعلى مسافة عن الناس. توجَّه إليها، وبلا كلمات عزيا بعضهما. حتى إن أيًّا منهما لم يقل كلمة واحدة عن الموت. بل أخبرته بصوت خفيض:

- رأيتُك صباحًا.

- سامحيني. لم أكن أعرف أنها جنازة يوسف. ما إن سمعتُ بالخبر حتى جئت. سامحيني. لا أعرف كيف تأخرت عن الوقوف إلى جانبكِ كل هذا الوقت.

انتظرها كي تقول شيئًا، إلا أنها بقيت صامتة. بدت خالية من الكلمات. بدت إنسانًا غادره التعبير. وقد احتاج إلى لحظات ليدرك أين رأته صباحًا، لم يكن قبل أن تخبره بأنها رأته صباحًا قد فكر بمجاورته جنازة صديقه من غير أن يشارك بها.

الصمت بينهما لم يكن صمتًا مألوفًا. وكلٌّ منهما في جوار الآخر ممتلئ بالحزن والفقد. تَقاطَر الناس، وإياس يقف في جوار ريما، صامتَين، من غير كلمات. بدا أن وقوفهما سوف يطول. لكنه قَسَرَ نفسه تحت إلحاح الظرف، على متابعة جملته:

- جئتُ أول ما قرأتُ الخبر. والله، حتى لو رأيت جنازة يوسف، لما صدقت عينَي. لكنني هنا. أنا إلى جانبك.

- أعرف إياس... أعرف.

كان الحديث ثقيلًا عليها. تباعدا من غير أن يتيح لها أن تشكره، ومن غير أن يبالغ في تأكيده لها على وجوده إلى جانبها، شعرت بالمواساة؛ بل منحتها كلماته القليلة شيئًا من دفء الألفة الصامتة. ربما اللغة التي داخلت حياة البشر، وجعلتهم يبنون حضاراتهم، قد ساهمت في تغريبهم. ربما البشر في لحظات صمتهم، في لحظات ارتباكهم وعجزهم عن التعبير، يبدون أقرب إلى حقيقتهم. اللغة قد تكذب، وقد تحدُّ المعنى، وقد تختزله. لكن الجسد لا يفعل، اللغة قد تخفي جانبًا وتظهر آخر. لكن الصمت وحركة الأيدي ونظرات الأعين، لا تقوى على أن تخفي المشاعر.

كانت لين تلتقط ميل ريما إلى العزلة، من خلال أحاديث يوسف عنها. وكانت تلمح من أحاديث صفاء عن إياس، ميله إلى العزلة، باستثناء علاقات قليلة لم يكن يحب الخروج من المنزل. وما أعاقه عن التفكير بالسفر، اعتقاده أن أهل بلده ليسوا مجرد مسافرين حيث يَصلون. كان العالم ينظر إليهم على أنهم أناسٌ فقدوا وطنهم. ومن جراء رفضِ إياس لشرط السفر الذي ارتبط بظرف اللجوء، وجد

نفسه عالقًا في المكان. معتقدًا بذلك أنه يحفظ كرامته. واستمر يرى اللجوء شذوذًا في حياة الشعوب، يحدث بسبب الحروب. في حين دفع ميلُ ريما إلى تحقيق مثالية الأشياء إلى تفكير نقيض لتفكير إياس. كانت ترى الحياة في بلد أنهكته الحرب، حياة ناقصة. مع أن شرط استمرار العيش والامتلاء به، هو القبول بنقصان الحياة.

كثيرًا ما استغرقت لين في التقاط الشَّبه بين ريما وإياس. ولو أنها لم تلمِّح أمام صفاء أو يوسف عن الطريقة التي تنظر بها إلى شريكيهما. كانت ترى ريما وإياس زوجًا مثاليًّا في تآلفهما وفي هدوئهما، وفي عزوفهما عن الظهور والمشاركة مع الآخرين. لكن لو أنجبا، لم يكونا لينجبا طفلًا مرحًا ومنطلقًا مثل نور. كانا لينجبا طفلة باردة تمضي وقتها في صنع العرائس والرسم. وما إن تتعلم القراءة حتى تمضي وقتها في القراءة واكتشاف العالم الخيالي البعيد عن الواقع.

عندما عادت ريما للجلوس إلى جوار لين التي أبعدت نظرها بصعوبة عن ريما وإياس، لمست لين داخل صديقتها الهدوء الذي يُشيعه حضور إياس والاقتراب منه. كان رجلًا يدفع من معه، من برفقته أو في حياته إلى الاطمئنان. حضوره هادئ، كلماته في المواقف الجادة مقتضبة. وكان ساخرًا على طريقته، كان يضيق بالحياة مع صفاء لأنها قسرته على الامتثال لتصورها عن شريك حياتها. كان أكثر بساطة من تعقيداتها. على النقيض كانت تجري علاقة يوسف مع ريما. الذي انتظر منها أن تكون أكثر مرونة، وكان يقول إن لديها سلوك القتلة مع ذلك الميل الثابت إلى البقاء بمفردها.

كانت لين تعرف الجميع، تعرف دوافعهم وأزماتهم، وقد تحركت

طويلًا في أسرارهم، وفي عالمهم الداخلي. لم تكن فتاة عفوية تقودها المصادفة؛ بل كانت من الفتيات اللواتي يعرفن ما يقمن به.

كثيرًا ما رأت لين نفسها جزءًا من عالم الآخرين المكتمل من غيرها. بدءًا بزوج أمها وزوجة أبيها، إلى علاقاتها العاطفية التي كانت تسعى فيها بصورة قهرية لأن تكون طرفًا ثالثًا. إذ تُطربها العلاقات التي يكون الألم جزءًا منها؛ ألم عدم الامتلاك، ألم عدم الكفاية، ألم عدم الاستقرار، ألمٌ يعرفه الشخص العابر. وهو وإن كان ألمًا، إلا أنه جعلها تتقبَّل حقائق الحياة. ولو أنها أصيبت بالذعر عندما قرأت خبر موت يوسف، إلا أنها كانت الأسرع في تقبُّل موته. وربما تُصارح إياس بعلاقتها السابقة مع يوسف. لكن ليس في هذا الوقت.

لم تكن لين تهاب أن تُشهر علاقاتها بعد الخروج منها. مع احتفاظها بأعلى شروط السرية والكتمان في أثناء العلاقة، لا لأنها بلا صفة اجتماعية تحميها. بل لأن الإشهار يلغي ألمَ التخفِّي الذي تهواه. كانت لين من أولئك الفتيات النادرات اللواتي يحركهن البحث عن غياب المستقبل. لم تكن تتصور العلاقة العاطفية أبدية، وهذا أحد الأوهام التي حررتها أنانية الأبوين منها.

إلى جانب أن وعي الفَناء الذي نشأ في ظرف الحرب، أنضج لدى من شهدها، وعيًا بإمكانية حدوث النهايات فجأةً. وقد تخطى الناس شيئًا كان يصعب تخطيه قبل الحرب؛ تخطوا وهمَ الطمأنينة. ووهمُ أن البشر آمنون في بيوتهم التي قُصفت، أمحى معه وهمًا آخر، وهو وهمُ أنهم آمنون مع أحبتهم. وأصبحوا يعيشون مع المخاوف طوال الوقت، مع إدراك أنها لم تَعُد مخاوف كما السابق.

إذ بعد وقت من العيش في ظل الخوف، تغادر المخاوف، وتترك أصحابها أحرارًا منها. لكن لا يوجد ما يحد الإنسان ما إن يسقط جدار الخوف في داخله.

كان يمكن للين أن تكون في علاقة مع يوسف زوج صديقتها، وأن تتجسس باستخدامه، على حياة ريما النفسية. وكان يمكن لها القبول بأن تكون في علاقة مع إياس صديق يوسف وطليق صديقتها صفاء، بعد أن تجسست طويلًا على حياته النفسية. ومع السلام الخادع الذي يظهر عليها، كان لديها لذة في الاستنزاف الذي يمارسه الآخرون ضد أنفسهم، أمامها. وفي صالة العزاء وإلى جوار ريما، استمرت لين بلعب الدور الذي تجيده، استمرت بالإصغاء. حكت لها ريما مصعوقةً بكلمات تائهة، كيف تركها يوسف... وتساءلت لين التي يعنيها موت يوسف بالقدر نفسه الذي يعني زوجته، حيال غرابة الأحياء الذين يأخذون على الموتى أنهم تركوهم، وكأنما مواجَهة الحياة أكثر صعوبة من مواجهة الموت.

ساعد انهيار الجدار داخل لين، على رؤية الأشياء رؤية تنطوي على جموح ولاعقلانية. لكن أكثر ما كان يشغل ريما، هو سيناريو انتحار يوسف. أيضًا كانت مشغولة بما يظهره الانتحار على أن موته كان فرارًا منها. وأكثر ما يترك الانتحار ندوبًا لدى أولئك الذين عاشوا مع المنتحر ساعاته الأخيرة. أمَلَت ريما أن تظهر الحادثة كجريمة قتل. لا مغادرة طوعية للحياة. وكانت تنتظر أن يسرعوا بإجراء التحقيق، واكتشاف جريمة ما. لأن تأكيد انتحاره، يعني مقتلها الرمزي.

كانت ريما تعاني. وناديا استمرت تروح وتجيء بين المعزيات.

تنهمك بالتجسس على التهامس الذي ملأ أرجاء الصالة. إذ حتى في حضور موت غامض، كان الكلام يجد طريقه إلى الألسن. قبل أن يقمع خروج الكلام بصورة واضحة هسيسٌ خافِت يأتي من وجوم الموت. ليسود الصمت لحظات، ثم يعود التهامس بالوتيرة السابقة. وكانت النسوة يتحدثن عن السفر المرتقَب لسيئة الحظ. وعن عدم إنجابها، وعن شروعها بتوزيع أغراض منزلها. وكانت ناديا تشعر بما يصل إلى سمعها من كلمات كالسفر والإنجاب؛ بأن حياة ابنتها الخاصة، وشؤونها شديدة الحساسية، كعدم الإنجاب، مكشوفتان أمام من لا يعرفها عن قرب. شعرت بالحزن على ابنتها. ولمست بعمق صفاقة الناس، وفضولهم الذي يعتقدون أنه عادي. وقد أدركت وهي تلتقط حديث الألسن الواثق عن حياة ابنتها، أن ذلك الفضول الذي أتاحت له أن يرسم حياة ابنتها، هو فضول حقير. كان عليها في مرحلة من حياتها أن توقف تأثيره في قراراتها. فأسئلة من قبيل؛ ماذا سيقول الناس؟ ماذا سيعتقدون حيال عمل زوجي وحيال عمل زوج ابنتي وحيال مكان سكني وطريقة لبسي؟ كلها أسئلة رسمت حياتها. لكنها شعرت بأن الوقت جاء كي ترميها من تفكيرها بالكامل. وأكثر ما تمنته هو أن تطرد النسوة المعزيات. وأن تحزن بتلقائية. لا على يوسف، فهو تُوفي. وإنما بسبب الفأل السيئ الذي سيَسم حياة ابنتها. لا لكونها أرملة، فالحرب صنعت الكثير من الأرامل، وإنما لأنها أرملة منتحر.

كان الرجال مأخوذين بأشغال المرحوم، يتحدثون عن توارثه مكتب والده، وعن بقائه في البلد على عكس إخوته. ثم من هذا

الباب، كانت أحاديثهم تدور حيال أسباب بقائه، يقولون إن الرأي رأي زوجته، ويقولون إنه كان مرتبطًا بعدد كبير من الدعاوى، وإن بعضها خطر. وهذا تأويلٌ أحدثه الموت. في الواقع، لا أحد من الموجودين كان على اطلاع يؤهله للحديث عن القضايا التي كان يوسف يتولاها. يقولون إن الموضوع في دعوى طلاق أو حضانة طفل أو تشهير إلكتروني بإحداهن، أودت بالمحامي إلى التهلكة. ويقولون إن الموضوع مرتبط بقضايا محكمة الإرهاب، أو باختلاس مبلغ كبير، أو بالإفراج عن مطلوب خطير. في حقيقة الأمر، لا أحد منهم كان يعرف ما يقول، إنما كانت الألسن تمارس هوايتها. في طقس الجنازة، الألسن تلوك سيرة الميت، كما لو أنها تلوك لحمه. وأخيرًا، يقولون ربما المرحوم أخطأ في ميزان الولاءات التي صار البلد ساحة لها.

كان الحديث يدور بين الحاضرين همسًا عن بدء التحقيقات في ملابسات الانتحار، وكان بعضهم يسارع إلى التصحيح بأنها جريمة قتل. إذ لا يوجد ما يدفع من يهمُّ بالهجرة إلى الانتحار. وهذا رأيٌ يبدو صائبًا. لولا أن يوسف في أعماقه لم يكن يريد تلك الهجرة.

يبقى الحديث عن شعور يوسف رجمًا في الغيب، تكهُّن صنعته روايات الآخرين. المؤكد أن حادثة موت المحامي المعروف لأهل اللاذقية، شغلت الرأيَ العام. الموت، هو الحقيقة المؤكدة في هذه القصة. ولم يتأخر الأمن بسبب كثرة تأويلات الحادثة وارتباطات المُتوفى المعقدة، عن الحضور. جاءوا بعد ساعات قليلة من بدء العزاء، أخذوا أمكنةً بين الحاضرين. وبدا أنهم بشر عاديون. الأمر

الذي دفع إياس إلى التساؤل إن كان منذ البدء مندوبون من الأمن، مخبرون، أو وشاة يجلسون بينهم، يبحثون عن القاتل، وعن دوافع القتل بين أحاديث عفوية قد تنطلق من أحدهم. لو حدث هذا بالفعل، لكان اصطيادًا. لكان استغلالًا لغفلة الإنسان عن كونه تحت المراقبة. مع ذلك، أضفى حضور المحققين على الصالة جوًّا من التوجس. ثم بدأ الحذر يشيع في أركان الصالة. وبدأ الحاضرون، يبحثون عن صمت يصل المخيلة لخشية التورط مع الأمن في قضية بهذا التعقيد. ومن التجني القول إن المحققين كانوا أجلافًا. على العكس؛ كانوا لطفاء. وكان يمكن لحضورهم أن يكون أليفًا، لولا غموض حادثة القتل الذي دفع إلى الظن احتمال أن أيًّا من الحاضرين يمكن أن يكون القاتل.

بقي إياس مرتابًا، ووالد يوسف غافلًا عما يحدث من حوله، وجنته متوردة وصوت الصفير يخرج من أنفاسه. حتى إن البعض كان يتجنَّب توجيه كلمات العزاء إليه بصورة مباشرة، كي لا يتعبوه. وبدا حضور إياس القريب من عائلة الفقيد حضورًا لإنقاذ صورة يوسف الذي لم يصل إخوته بعد. وكثيرٌ من زملائه المقربين تجنَّبوا الحضور للشبهات التي تحوم حيال حادثة الموت. وكأنما مع الوقت لا يعود الفرق كبيرًا بين القسر على العبودية والعبودية الطوعية.

بدأ الحاضرون بالمغادرة. إذ ثمة شعور سبَّبه حضور جهة تختص بالتحقيق بأن الحقيقة اقتربت، ستُعرف. وسرعان ما يموت الفضول القديم لدى الإنسان لرؤية القاتل الذي يعيش في رتابة الحياة العادية، وفي غفرانها. بدا أن مجيء المحققين كان لغاية أن يخربوا العزاء

على أهل المُتوفى. كي يوقفوا حلقة الشائعات عن القتل العمد التي بدأت تشيع بين الناس.

بعد وقت قليل نسبيًّا من مجيء المحققين، خلت الصالة تقريبًا. وبقي عدد قليل من الخُلص ليوسف الذين لم يغادروا، منهم إياس، ونذير الستيني الصامت الذي تشير ملامحه إلى أنه مرتاح في حياته. وأقرب إلى أن يكون مبتسمًا. كان إياس يهابه. ويتعامل معه بحذر من غير أن يكون هناك سبب لديه، سوى حدسه. حتى في الأمس، عندما رآه خارج البناء في طريقه مع لين إلى منزليهما، فيما كان نذير قادمًا إلى منزل يوسف، مضى من جواره بسرعة، وتجنب إلقاء التحية عليه.

كانت النساء يخرجن في أعقاب أزواجهن. ريما تسرح في عالم حزين. ونانديا إلى جانبها. انزوت لين إلى ركن قصي، وقد جعلها حضور المحققين خائفة. إذ اعتقدت أنها صاحبة السر الأكبر في حياة يوسف. كيف لا تعتقد ذلك، وكانت هي نفسها، سره. وفي النهاية، لم يبقَ إلا المحققون والعائلة، ريما ونانديا ونهاد ونذير وإياس. لين غادرت. لم يكن لديها الجرأة على البقاء.

* * *

كانت شهرزاد تعوم في أفواه الناس، وفي رؤوسهم ومخيلتهم، تحكي وتحكي، وكل حكاية تقود إلى أخرى. فيما شهريار، مليك الموت، جالسٌ، يتقن كيف ينصت، كي يشحذَ مخيلته بالحلقات التي تُعقَد أمامه؛ حلقات تطوي الناس، وتكيل بالناس. أبطالها أناس عاديون، وضحاياها أناس عاديون.

الفصل الثالث

المشاهد

المشهد الأول

مع خلو الصالة من المعزين، اتضح أن المحققين جاءوا، كي يَفضُّوا العزاء، فالمدينة لم تقبل فرضية الانتحار. وبدا أن المحققين جاءوا كي يخترعوا جانيًا. المقتول موجود، والمطلوب إيجاد قاتل. وما جعل البحث عن قاتل أمرًا لحوحًا هو الشعبية التي تَحلَّى بها المغدور، إلى جانب تعقيد ارتباطاته؛ ما شكَّل رأيًا عامًّا بأنه تعرَّض للتصفية. والرأي العام الذي تَشَكل مع إعلان الحادثة، لم يكن ذا شأن. كان يمكن للحادثة أن تُنسى صباحَ اليوم التالي. لكن بعد سنوات طويلة جائرة، وبعد أن طُحنتْ إرادة الناس؛ صار خطاب السلطة متقدمًا على خطاب الناس. وهذه مفارقة قاهرة، صنعتها سنوات العسف الطويلة. وهكذا، بدا اختراع القاتل، نوعًا من الخدمة التي تقدمها السلطة لنفسها.

أقيمت هيئة تحقيق بسرعة كي تخلق قاتلًا. وكان يمكن للمحققين أن يرموا بتهمة القتل على أيٍّ كان. لولا أنهم، بصفتهم محققين، كانوا مضطرين إلى التقيد بالبرتوكول في أوقات كهذه.

كان إياس ينوب عن ذوي المغدور، وتوجه إلى المحققين.

بعد كلمات عزاء سمعها واجفًا. طلب المحققون منه أن يُعرفهم بذوي المُتوفى، كي يبدأوا جمع إفاداتهم. لم يجد إياس جدوى من الاعتراض على التوقيت الذي جاءوا به. خصوصًا مع كلمات أحدهم، وقد بدا صاحب الأمر بينهم؛ بل بدا بكلماته التي ظهرت صادقةً، شخصًا إنسانيًّا:

المحقق الرئيسي: نقدِّر حزنكم على المرحوم. لكن كما ترى القضية أصبحت قضية رأي عام. وتوجد تعليمات واضحة من جهات عليا، بالسرعة في إجراء التحقيق. والاهتمام بالقضية أقصى اهتمام. نحن مأمورون. أرجو أن تقدِّروا حالنا. مثلما نقدِّر مصابكم.

إياس: هذا عملكم. ما دام الأمر مفروضًا علينا جميعًا، أقترح أن تبدأوا التحقيق معي. أيضًا إن سمحتم لي، أقترح أن تبدأوا من البعيدين إلى الأقربين. ربما تتيح ساعات التحقيق لزوجته أن ترتاح قليلًا.

قبِلوا اقتراحه، وشعر إياس ببعض الراحة معهم. لم يكونوا غليظي الطباع. وعندما بدأوا بالتصرف عمليًّا، بدا أنهم متعاونون. ما شجع إياس على الطلب منهم أن يتجهوا إلى منزل يوسف، حيث وقعت الحادثة. وكي يُتاح لذوي المغدور أن يرتاحوا بين أركان المنزل. وقد استجابوا له. ومنهم من أشاد باقتراحه. وقد بدد اللطف الذي أبداه رجال التحقيق بعض الخشية المسبَقة التي شكَّلتها حادثة الموت.

في منزل يوسف، وعلى مقربة من صالة العزاء، جلس المحققون، حيث جلس المحتفلون ليل الأمس. لم تكن ريما قادرة على الحديث، دخلت غرفتها تتبعها والدتها ناديا. وبدا والد يوسف أعزل، لا يعرف،

مع انشغال إياس، أحدًا يدله على ما يفعل، وأين يذهب، وأين يجلس. وأخيرًا جلس في الركن الظليل الذي جلس فيه ليلة الأمس. إياس كان ملتزمًا بالبقاء مع المحققين، كي يساعدهم على أداء مهمتهم بسرعة، ويتركوا الأسرة لأحزانها. تَقرر أن يجلس المحققون في المطبخ، حيث بدأ إياس إفادته:

إياس: علاقتي مع يوسف قديمة، أعرف أهله وإخوته، وأنا قريب من والده. حتى إن يوسف تعرَّف إلى زوجته في حفل زفافي، ورقص معها يومها. لكن أنا مُطلَّق الآن. أعيش بمفردي، زوجتي تركتني، هي التي طلبت الانفصال. لديَّ طفل. اسمه نور. لكنها أخذت ابني معها، وهما مستقران في أوروبا. أما أنا، فأعيش قرب حديقة الأندلس. أعمل في مكتب هندسي. أعرف يوسف منذ الثانوية. درسنا في مدرسة «جول جمَّال». ومنذ عرفت يوسف، لم أعرف أن له أعداء. الناس تحبه. كان على موعد للسفر. هي هجرة. لم يخبرني صراحة بذلك. لكننا عرفنا كلٌّ بطريقته. من دعاني إلى الحفل هي ريما. ولم أتساءل لماذا لم يدعُني هو. أظن أنه كان مشغولًا. يوسف كثير الأشغال. يعمل طوال الوقت. وليس غريبًا الحزن عليه، فالناس تحترم من يتفانى في عمله. في الحفل، كان كل شيء عاديًّا ومتوقعًا، الجميع كان سعيدًا. الجميع كان في الوقت نفسه، يحاول أن يخبئ جرح الرحيل. وكنا في حدود عشرة أشخاص: أنا ووالده وزوجته مع والدتها، وزملاء يوسف (بعد صمت) وحضرت لين. أمضت وقت العشاء برفقتي، هي صديقتنا. يوسف وريما وأنا وصفاء. صفاء زوجتي السابقة. أخبرتُكم. أنا

مُطلَّق. أعيش بمفردي، زوجتي هي التي تركتني. لديَّ طفل. اسمه نور. ولكنه يعيش معها...

قاطعه المحقق الرئيسي، وطلب إليه أن يتصل مع الذين كانوا في الحفل، إن كان يعرفهم، كي يجيئوا. أجرى إياس اتصالاته. وصل إلى زملاء يوسف. لكن لم يصل إلى لين التي لم يكن يملك رقم جوالها. استأذن من المحققين أن يطلب رقم أحدهم من ريما. سأله المحققون بصيغة اتهامية عن رقم من سيسأل، خاصة بعد أن أكد معرفته بالجميع. ارتبك إياس. وأخبرهم أن لين لا تجيب على الرقم الذي لديه لها. سيسأل إن كان لديها رقم آخر. قبل أن يعود ويوضح أن رقمها خارج التغطية. وقد ترك ارتباكه حيال لين، لدى المحققين خيطًا من الريبة في نفوسهم.

بدا التحقيق استثنائيًّا. وكان الأشخاص الموجودون في المنزل جزءًا من فريق يعمل على جمع المعلومات عن يوسف. خلال وقت قصير، كان بحوزة المحققين بيانات بالأملاك التي باعها يوسف الذي كان مُقدِمًا على السفر، وبالاتصالات التي أجراها في الشهر الأخير. وكان فريق الخبراء يحاول الوصول إلى بيانات لابتوب وموبايل يوسف. بدا كل شيء في التحقيق مثاليًّا إلى درجة تدعو إلى الريبة.

لم يبدِ أيٌّ من المحققين اهتمامًا مبالغًا به بارتباك إياس حيال لين، وصعوبة الوصول إليها. وقد اكتفوا بسؤاله عما فعلاه بعد أن غادرا المنزل. أخبرهم أنهما افترقا بالقرب من المنارة، لين عادت إلى المارتقلا، فيما تابع سيره إلى منزله. هنا توقف إياس. لكنه أيضًا ارتبك وهو يخفي من غير أن يعي لماذا؛ مجيء لين إليه في الصباح

المبكر. شعر بأنهما بريئان. ولا يوجد ما يدفعه إلى سرد كل ما حدث منذ ليل البارحة. اقتصر إجابته. عدا أن مغادرة لين للعزاء من دون أن تخبره، تركت في نفسه حذرًا. كان يحتاج إلى أن يراها، وأن يتكلم معها، ويستوضح منها سبب لجوئها إليه. خشي أن يورطها لو أخبر المحققين عن لجوئها إليه. ولم يفكر أن ارتباكه وإخفاءه هذا التفصيل قد يضعه هو نفسه موضع الشك.

من بين الوثائق التي وجدها المحققون؛ نقل يوسف ملكية منزل صلنفة لصديقه إياس. وهو أمرٌ كان صاعقًا بالنسبة إلى ناديا التي سرعان ما استفسرت عن مسألة نقل الملكية من ابنتها ريما، التي أيضًا كان صاعقًا بالنسبة إليها، نقلُ الملكية. بدا أن التحقيق سرق حزن الأسرة. وأخذوا يتساءلون عن أهمية يوسف، إذ وجدوا أنفسهم فجأة أمام شخص ثري، محامٍ ناجح، يدير توكيلات عديدة لشخصيات مهمة. وأمام كشف حساباته المالية وطريقة تصرفه بأملاكه، كان التساؤل يكبر عن خصوصية إياس بالنسبة إلى يوسف. لكن إياس لم يرتبك هنا، وقال ما إن واجهوه بالمسألة:

إياس: لا أعرف لماذا نقَل الملكية إليَّ. لم يستأذن مني. يوسف كان يثق بي. كان يعدُّني صديقه. وحتى لو أخبرني، لم أكن لأسأله عن السبب. فالأصدقاء لا يفعلون ذلك.

سأله مساعد المحقق مُستفزًّا من برود الثقة:

مساعد المحقق: طيب، ألم تتساءل الآن، بينك وبين نفسك؟

إياس: كان يوسف يعتمد عليَّ بخصوص والده. تعرفون. والده عاجز. ربما لهذا السبب ترك لي المنزل، إذ لم يبقَ لأبيه سواي. كما

أني أشعر بجرح والده. أنا أيضًا زوجتي تركتني. لديَّ طفل. اسمه نور. لكنه يعيش معها.

قال جملته الأخيرة بكثير من الخجل. وبدا بالنسبة إلى المحقق الرئيسي، أن إياس بالفعل يهتم لأمر يوسف ووالده. حتى إنه لم يكن يفهم أسئلتهم له بروح الشك. كان بريئًا من الشرور. وكان فهمه للعالم ينطوي على شيء من البراءة. وحديثه يدور حول عقدة بحالها، هي انفصال زوجته عنه. تابع إياس يشرح كيف كان يوسف يراه:

إياس: ربما كان يوسف يخشى أن يتصرف أحد في المنزل. وكان يعنيه. ربما كان يخشى من مصير المنزل. لست متأكدًا. لكن المؤكد بالنسبة إليَّ أنه كان يعرف أنني لن أتصرف بما تركه لي. أنا مُطلَّق. زوجتي هي التي طلبت الطلاق. وقد ساعدتها ما استطعت في خطواتها للابتعاد عني. كان يوسف شاهدًا على زواجي منها، وشاهدًا على مشاكلنا معًا. وقد تأكد له أني لن أتصرف بأمواله، وقد تركتُ لصفاء الكثير مما لم يكن من حقها. كان يوسف يجدني شخصًا لا يتجاوز حدود إرادة الآخرين.

تأفَّف المحققون من استرسال إياس. وتكراره حادثة الانفصال الذي بدا أنه لم يتجاوزه. لكن أحدًا لم يعطِهِ إشارة للتوقف عن الحديث. وكان المحقق الرئيسي مستمتعًا برواية إياس. بدت روايته متماسكة. وليس من المستغرَب لمحقق يزيد عن الخمسين من العمر؛ أن يثق صديقٌ بصديقه بعد أن شهد التسويات الشتى للانفصال. وبدا للمحقق أن إياس فعل ما بوسعه، كي ينقذ شريكته. أما عنه، فقد بدا غير آبه بنفسه.

في أثناء التحقيق كانت اتصالاتٌ لحوحة تقاطع التحقيق، وتَرِد للمحقق الرئيسي من جهات عديدة. أمام الأهمية التي أُضفيت على حادثة القتل من جهات أهلية ومن نقابة المحامين ومن أفرع الأمن ومن أهالي المدينة؛ شعر إياس بأنه لا يعرف صديقه. وقد ترك نقل الملكية تساؤلًا آخر حيال العلاقة التي جمعت الصديقين. كان إياس موضع تقدير الجميع. لكن فجأة داخَل شعورهم شيء من الحيرة. إذ بدا أن يوسف الذي كشف موتُه عن أهميته، يثق بشخص فقط، هو إياس، وليس أي أحد؛ إنه يثق برجل من معدن طفولي.

بالنسبة إلى المحققين، كان إياس بمنزلة بيت الأسرار المحتمَل للمغدور، طلبوا إليه أن يبقى في المنزل لحين الانتهاء من التحقيق مع الجميع. وقد سألهم بصورة تؤكد لهم مدى نزاهته:

إياس: لكن، إلى أين سأذهب؟

وكان يشعر بالخجل من حقيقة الفقد. ومن حقيقة أخرى هي وحدة يوسف أمام مصيره. إياس لم يستطع أن يفعل لصديقه شيئًا هذه المرة. فهو لم يكن في مغامرة عاطفية مع إحداهن، كان في مغامرة مع الحياة التي أسلمته للموت.

عندما أنهى المحققون حديثهم مع إياس، كان سائر الحاضرين في الأمس قد جاءوا، باستثناء لين، التي جعل عدم قدومها التساؤلات تكبر حيالها. أكد لهم إياس أنها سوف تأتي ما إن يستطيع أحدٌ التواصل معها. وأخذ يؤكد للمحققين بصورة حثيثة، أن التغطية سيئة بسبب انقطاع الكهرباء الذي وصل لسبع ساعات متواصلة. وأخذ يحدثهم بصفتهم أغرابًا عن الحياة في اللاذقية التي تعاني صعوبة في الخدمات

كلها. ويمكن القول إن إياس بالَغ في وفادتهم، لأنه اعتبرهم ضيوف الموت. وقد ترك اهتمام إياس بهم، لديهم بعض الارتياح. وجعل المهمة بالنسبة إليهم أشبه بالجلوس في ضيافة عائلة في يوم عادي من أيامها.

المشهد الثاني

إياس هو مَن طلب مِن المحامين أن ينتخبوا أحدهم كي يبدأ المحققون معه، ولم يرتبك المحامون الثلاثة. شعر إياس بأنهم غرباء عن يوسف. بدا أنهم غير معنيين بالقتيل، أرادوا أن تؤخذ إفادتهم كي يستطيعوا العودة إلى أعمالهم. دخل أحدهم، وفي الداخل وجد المحققين يرتقبون دخوله. جلس مقابلًا لهم، وطلبوا إليه أن يحكي، ببساطة، كيف يرى مسألة موت زميله:

المحامي (١): لم أتخيل أن ليوسف أعداء. مع أني أعرف أشخاصًا كانوا يغارون من نجاحه. وقد أكون أحدهم. قد يكون أيٌّ من زملاء المهنة أحدهم. لكن أؤكد لكم، ليس شعورًا يصل بأحدهم إلى أن يقتله. هو شعور أقرب إلى الغيرة، إلى عداوة الكار. سمِّها ما شئت حضرة المحقق؛ كنا نرى يوسف ناجحًا أكثر منا. حياته سهلة. ورث مكتب وسمعة أبيه. بدأ من ذروة النجاح. ربما لهذا كان موته سريعًا. إذ لكل إنسان مقدار محدد من النجاح. ويوسف نادى على أقداره باكرًا.

تأمَّل المحقق الرئيسي كلمات الرجل. وبدا موت يوسف بالفعل،

احتراقًا للزمن. وبدا أن يوسف بالفعل، بنجاحه الباهر السريع، جرح منطق العيش في البلد الضيق. الأمر الذي أودى به. وبدا للمحقق للحظة، أن موت يوسف موتٌ عادي، يأتي في السياق، ولا يحتاج إلى تحقيق. لكن سرعان ما أعاده استرسال زميل يوسف إلى حقيقة وجود الجريمة:

المحامي (١): إن كان ليوسف خصوم فهم ليسوا زملاءه. وإنما يمكن أن يكون غريمه في إحدى الدعاوى الصعبة التي أُوكلت له. أعتذر. لكن يمكن أن يكون مكان التحقيق ليس هنا في مطبخ منزله. بل في مكتبه، وبين دعاواه التي شملت قضايا فساد كبيرة. يمكن أن يكون يوسف قد ارتكب خطأ بالفوز بإحداها. والله أعلم.

لم يوسع المحقق من أفق هذه الإجابة؛ بل نهر زميل يوسف، الذي بدا كلامه تعدِّيًا على سير التحقيق. وأعاده إلى حادثة العشاء. لا سيما أن إسناد نهاية مداخلته إلى الله، ترك انطباعًا مؤكَّدًا لدى المحققين أن لدى المحامي ما يضيفه. وهذه إضافة لا يريدونها. أما فيما يخص العشاء، فتابع:

المحامي (١): كل شيء كان عاديًّا، يداخله حزن الفراق، والفرح لأجل رحيل يوسف مع زوجته إلى حياتهما الجديدة. لم أكن أول من غادر. غادرتُ مع باقي الزملاء في حدود الحادية عشرة والنصف ليلًا. أي، قبل الوفاة التي كانت مع حلول منتصف الليل. كما عرفنا. عندما وقعت حادثة الموت، كنا في منازلنا، أو في طريقنا إليها. أنا وزميلاي لم نرَ ما يمكن أن يثير ريبةً. لا في الحفل ولا فيما أعقبه. ولا أعتقد أن القاتل كان موجودًا بيننا. بدا الجميع متآلفين معًا.

هنا بدا أن إفادة الرجل قد انتهت، والإشارة الوحيدة التي أعطاها للمحققين مرتبطة بعمل يوسف المحفوف بالأخطار. العمل الذي كانوا يملكون تصورًا عنه. أراد مساعد المحقق أن يستفز ذاكرة زميل يوسف:

مساعد المحقق: حضرة المحامي، وكأنك تحاول أن تأخذ تحقيقنا النزيه في وجهة محددة ومرتبطة - كما تقول - بعمل يوسف. لكنك تنسى أنه قد وزع دعاواه بينك وبين زملائه الآخرين. بالتالي، قتلُه بسبب دعاواه لن يوقف عمله.

المحامي (١): إلا إن كان قتلُه عملًا انتقاميًّا، أو لمنعه من المغادرة.

المحقق الرئيسي: ما أخشاه أنك بحديثك تريد أن تبعدنا عن مكان الجريمة. خاصة، وأنت تعرف في علم النفس الجنائي أهمية مكان الجريمة.

ارتبك المحامي من أسلوب المحقق الاتهامي. سارع بالقول، وكأنما أضاء المحقق زاوية في ذاكرته:

المحامي (١): لا أعرف إن كان مهمًّا ما تذكرته. أنتم تعرفون تقدير المواقف أكثر مني. لكنني رأيت مع زميلَي إحدى المدعوات التي غادرت قبلنا تعود إلى منزل المغدور. وكان ذلك، قبل الجريمة، أقصد الحادثة. أقصد، المهم، قبل أن يموت يوسف.

أربكهم تفسيره لعباراته، وأكمل:

المحامي (١): أظن اسمها لين، وهي الفتاة التي بقيت برفقة إياس طوال العشاء، كنا رأيناها مقابلَ البنك الإسلامي على الكورنيش. كانت مرتبكة. كانت بمفردها. مع أنها خرجت برفقة إياس. ويبدو أنهما افترقا في مكان ما.

المحقق الرئيسي: صحيح. افترقا بالقرب من المنارة، وكانت عائدة إلى غرفتها. أنت تهدر وقتنا.

قال بحماسة وكأنما أراد أن يعطي انطباعًا عن أهمية إفادته:

المحامي (١): بل كانت عائدة إلى منزل يوسف. أخبرتنا مرتبكةً. أنا هنا أنقل كلماتها، ولا أفترض شيئًا. لا أعرف أيَّ ساعة بالضبط. ربما كانت الجريمة قد حدثت. أقصد الانتحار. ربما. لا أعرف. لو تتأكدون من زميلَي. أعتذر. أنا هنا لا أتدخل في مسار التحقيق النزيه.

بالطبع، لم يكن يسخر. لكن بقيت كلمة «النزيه» ترنُّ في المطبخ. وكان المحامي يقصد أن يثمِّن جهود المحققين. لكن بدا من ارتباكهم أمام الحديث عن النزاهة أنه أخطأ. اعتذر، وطلب منهم الإذن بالخروج. وقد أشاروا إليه سريعًا كي يخرج. وفي الخارج، كان إياس يجلس إلى جوار نهاد. توجه إليه المحامي، واقترح عليه أن يقدموا شيئًا للمحققين.

المشهد الثالث

ارتبك إياس أمام اقتراح المحامي أن يقدموا شيئًا للمحققين، فهُم أساسًا يجلسون في المطبخ. ولا يريد أن يقتحم عليهم عملهم. بعد تفكير، طلب من أحد الشبَّان أن ينزل إلى صالة العزاء، ويحضر حافظة القهوة. وألح عليه أن يُسرع. وفي الأثناء كان المحامي الثاني قد دخل إلى المطبخ، وكذلك طلب إليه المحقق الرئيسي أن يبدأ إفادته من طريق العودة، من رؤيتهم لين عائدة:

المحامي (٢): صحيح رأينا لين في طريق عودتها إلى منزل يوسف. وكانت قد نسيت شيئًا. لا أذكره. حتى هي، لا أذكر إذا ما كانت قد أخبرتنا عن الشيء الذي نسيته في منزل يوسف. أظن أنها ذكرت المفاتيح. المؤكد أننا رأيناها. وبدا أنها مخمورة. نظراتها كسيرة. أشفقتُ عليها مع زميلَي. من غير أن نعي لماذا. لكننا بعد أن تركناها لم نتكلم للحظات. لا أعرف إن كان هذا مهمًّا. لكنها بدت بهيئتها الجميلة، تخرج وحيدة في الليل. بدت بالنسبة إلينا فتاة بائسة. أيضًا، لا أعرف إن كنتم ترون هذا التفصيل مهمًّا. لكن لين، فتاة جميلة. ما إن تراها حتى ترغب بأن ترافقها.

لقد شقَّ على كلٍّ منا أن يتركها تعود وحيدة. ربما لو صادفها أيٌّ منا بمفرده، لاقترح إيصالها إلى وجهتها. لكن وجودنا معًا جعلنا نشعر بأننا تحت المراقبة. وكنا نتحدث في حجم الدعاوى التي كان يوسف موكَّلًا بها.

توقف يلتقط أنفاسه، وكأنه كان يتحدث تحت ضغط:

المحامي (٢): كان يوسف أشبه بفريق من المحامين. لم يكن محاميًا عاديًّا. وكنا نتحدث عنه بنوع من الفخر لتفوقه. لكن في الحقيقة، جميعنا كنا نغار منه. وقد ترك نجاحُه داخلنا شعورًا بأننا وُصفاء. رأينا لين عائدة. وكان من الخطأ أن نتركها تعود بمفردها. يوسف لم يكن ليتركها تعود بمفردها. لكننا؛ لسنا يوسف.

تركت الجملة الأخيرة لدى المحققين بعضًا من الحزن. وقد فوجئوا برجل يعترف بتفوق رجل آخر عليه. باستسلام بدا دافعُه فقط، المحبة. تابع الزميل الثاني:

المحامي (٢): عندما بدأنا الحديث بعد أن تجاوزتنا لين بمسافة، تساءلنا جميعًا كيف تركها إياس تعود بمفردها في الليل. كان رجلًا لبقًا. لكن بقي الأمر لا يعنينا في النهاية. مع أنهما كانا قريبين في وقت العشاء. لكننا لا نعرف طبيعة العلاقة التي جمعتهما. ثم إياس لا يمكن فهمه بسهولة. كان شخصًا معقدًا.

توقف لحظات ثم تابع يستدرك أمرًا:

المحامي (٢): وفي الصباح، مر إياس إلى جوار الجنازة من غير أن يلتفت إليها، وكأنها جنازة لا تعنيه. ظهر لنا جميعًا. حتى اسألوا زميلَي؛ ظهر رجلًا غريب الأطوار. لا يمكن توقع ما يصدر عنه.

وعندما رأيناه في العزاء، يقوم مقام الأخ. فكرنا بأن وقع الفاجعة هو ما جعله ساهمًا في الشارع، أكثر مما كان واعيًا لما يدور من حوله. لقد تجنب الجنازة. وبدا بصورة مؤكدة لمن يراه، أنه لم يكن يريد الخروج في جنازة صديقه.

المشهد الرابع

مع خروج المحامي من المطبخ بدأ يبحث عن إياس، وعندما رآه وفي يده حافظة القهوة، أراد أن يعتذر إليه. ولكنه لم يقدر، لم يكن بمقدوره أن يفسر حتى أمام نفسه السبب الذي جعله يشعر بأن عليه الاعتذار من إياس الذي حيَّاه، بوجه مرتاح. ضغطُ الموت والتحقيق منعَ عنه القول بأن إياس كان مبتهجًا.

وضع إياس حافظة القهوة أمام المحققين، وأحضر لهم ثلاثة فناجين. لكن المحقق الرئيسي، طلب إليه بصورة مباشرة، أن يحضر له كاسة شفافة عادية. وأعقب بأنه يحب أن يرى ما يشرب. ارتبك إياس. عاد خطوة إلى خزائن المطبخ، وأخرج كاسة الشاي الشفافة، ووضعها أمام المحقق. ثم خرج، حيث التقى مع المحامي الثالث في أثناء دخول المطبخ. خرج، وأغلق الباب من غير أن يلتفت إلى المحققين، وفي خاطره، أن نظرات المحقق الرئيسي كانت موجهة إليه، بعدائية. لكن في الداخل، ما إن أغلق إياس الباب، حتى ارتشف المحقق الرئيسي رشفة من القهوة، بطرفَي شفتيه. وقال للمحامي الثالث:

المحقق الرئيسي: هاتِ، احكِ لنا ماذا تعرف عن لين وإياس.

المحامي (٣): (مرتبكًا) تقصد معًا؟

ولمَّا لم يأتِهِ توضيح، أكمل:

المحامي (٣): لين فتاة قصيرة القد ولا تعطي من يراها انطباعًا أنها فتاة مميزة. كانت جميلة ليلة الأمس. وأثار استغرابنا عودتها ليلًا بمفردها إلى منزل يوسف. بدت خائفة ربما بسبب عودتها بمفردها وإضاعتها للمفاتيح. لكن للأمانة، بدا في عينيها تيه مَن يُقدِم على جريمة قتل من غير أن يقوى على التراجع.

ران صمتٌ بين الجميع، وهو صمت مفاجئ. وقد ترك تشبيه المحامي الثالث بين المحققين انطباعًا بالحيرة. جميعهم، كانوا حيارى. تابع المحامي حديثه:

المحامي (٣): قلتُ هذا أمام زميلَي البارحة. ولا أشير بأيِّ صورة إلى أنها القاتلة. أرجو ألا أشوِّش التحقيق باستعارتي الحمقاء. أردت أن أشير إلى الجزع في عينيها. اقتربتُ منها، وكانت مخمورة تقريبًا. يمكن أن أقول أيضًا، وكأنها فقدت شيئًا. ليس المفاتيح، كما أخبرتنا؛ وإنما أمرٌ أعمق، أمرٌ جوَّاني لا يمكنني أن أحدده. لكنني بالفعل اقتربت منها، وانحنيت إليها، لفارق الطول بيننا. وكان يمكن أن أعود معها، خطر لي أن أوصلها ما إن وقعتُ على التيه في نظراتها. لكنها نهرتني. وكأنني أفسد عليها شعورًا لذيذًا. ثم لم تعطِني الوقت كي ألحق بها. اختفت داخل الليل. وحتى بعد اختفائها بقينا نتأمل مكان اختفائها. كان لديَّ انطباع أنها ستعاود الظهور. لكنها لم تظهر. اختفت داخل الليل. وتابعنا سيرنا كلٌّ إلى وجهته. حتى لين. وأنا

هنا أتحدث عن انطباعي، لم أكن أشعر بأنها بالفعل عائدة إلى منزل يوسف. لقد بدت لي شخصًا من غير وجهة.

توقف عن الكلام فيما كان المحققون يشربون القهوة، وينتظرون سماع المزيد.

المحامي (٣): أيضًا لم تحضر الجنازة. وفي علم النفس الجنائي القاتل يحضر الجنازة، وقد يكون أول المشاركين. أستبعد أن تكون لين هي القاتلة. ثم ما الذي يدفع بها إلى قتل يوسف؟ لا أظن وجود سبب. الدافع لقتل يوسف هو نجاحه. قد يكون في إحدى دعاواه اقترب من أمور لم يكن عليه الاقتراب منها.

ما إن خرج إلى سياق آخر، حتى أعادته كلماتٌ مباشرة من مساعد المحقق، تزجره، إلى السياق المطلوب:

مساعد المحقق: يكفي ثرثرة وحديثًا في الدوافع، نحن المحققون، ولدينا أدلة هنا. لا تعطل التحقيق وتشوِّش علينا. ثم مَن حضر الجنازة؟

المحامي (٣): جميعنا.

المحقق الرئيسي: إذن، يقول لنا علم النفس الجنائي الذي تهرف فيه، إنكم جميعكم قتلة محتمَلون. ما رأيك الآن؟

فوجئ المحامي بكلمات المحقق الفصيحة الغاضبة، بقي صامتًا.

تابع المحقق:

المحقق الرئيسي: ما انطباعك عن الجنازة؟ تحدث فيما رأيت. لا في الشعور الجوَّاني. لا في علم النفس الجنائي.

المحامي (٣): قلت لكم، حضر الجميع باستثناء لين.

المحقق الرئيسي: وماذا عن إياس؟ إلى الآن لم تحدثنا عنه. هل رأيته؟

المحامي (٣): رأيته، كان في الجنازة. أو لا يمكن أن أقول إنه كان في الجنازة. كيف أشرح، كان ولم يكن. حضر من غير أن يكون مشاركًا فيها. عَبَر الجنازة. لكن بالقدر نفسه، بدا أنه يتجنبها تجنُّب القتلة. بالفعل، بدا هائمًا تحرِّكه عقدة الذنب.

المحقق الرئيسي: دعك من الجوَّانيات التي تترك لدينا انطباعًا أننا نعيش في رواية روسية. أنت ترمي كلماتك كيفما جاءت. هذا تحقيق جاد ونزيه. لا تتفلسف. أنتَ تشوِّش العدالة بفرضياتك واستعاراتك.

المحامي (٣): هذا ما أملكه. فالجريمة غامضة، أو الانتحار. لا أعرف؛ بماذا تحققون؟ ولماذا؟

وسرعان ما كان عليه أن يعتذر على تطاوله بأسئلة من هذا النوع. كما بقي الالتباس في طبيعة الموت قائمًا بين المحامين. وقد ترك المحامون الثلاثة انطباعًا لدى المحقق الرئيسي أنهم أغبياء. لكن في الوقت نفسه غباؤهم خدم المهمةَ التي جاء المحققون من أجلها.

بقي المحقق الرئيسي ساهمًا في الاستعارة التي أطلقها المحامي الأخير على كلٍّ من لين وإياس. وقد أثارت الاستعارة اللغوية، لديه شعورًا أن كلًّا من لين وإياس يمكن أن يكونا متهمَين. وقد بدت مهمة فريق التحقيق يسيرةً بسبب سلوك الشخصيات. لا في الدوافع. إذ كان للين وإياس سلوك من يخفي شيئًا عن الآخرين؛ تقاربهما وتآلفهما بدا لغزًا. لكن في الأحوال جميعها، لن يهتم المحقق بكشف لغز تلك العلاقة التي جعلت إياس يرتبك أمام كل ذِكر للين، وإنما سيهتم بجمع المزيد من الأدلة التي تدين لين، وإياس. وبقي على المحقق أن يكشف العلاقة بين لين وإياس بالحدود التي تخدم الحبكة التي

يحتاج إليها ليثبت دوافع القتل. وهي حبكة متخيَّلة. في الواقع، القاتل معروف. السلوك المرتاب للين وإياس؛ أنقذ جهاز الحكم. حتى لو لم يصدق الناس الرواية التي سوف يخرج بها المحققون. على الأقل، سيكون جهاز الحكم قد أدى مهمته؛ ها هي الجريمة، وها هم القتلة؛ عصابة مؤلفة من شخصين. منذ الثلث الأول في التحقيق، بدت القضية منتهية.

مع خروج المحامي الثالث، طلب المحقق الرئيسي دخول إياس من جديد إلى المطبخ. لكنه فوجئ بخروجه من المنزل من غير أن يخبرهم. سأل إن جاءت المدعوة لين، وما إن عرف عدم قدومها، حتى حَدَس بأن خروج إياس مرتبط بها. وطلب إلى رجاله أن يصلوا إليهما. كما طلب إلى مساعدَيه أن يرتاحا في الصالون، فيما أرسل يخبر المحامين أن بوسعهم المغادرة. لكن عليهم أن يبقوا في المدينة. ثم نادى على نذير. وجلس معه في المطبخ على انفراد. حيث بدآ معًا دردشةً. وكان نهاد في الركن الظليل في الصالون، ينظر باتجاه الباب، ويُصفر صفيرًا أليمًا.

الفصل الرابع
العَتبات

العتبة الثانية

لين

مع خديعته لي، كنت أريد فرصتي كي أحزن على يوسف، وكنت محرَجة بحضور زوجته. أقصى ما أردته خلال العزاء أن أخلو بنفسي. أن يتركوني بمفردي. وكان هذا متاحًا بموت شاب محبوب وناجح، إذ بدا جميع المعزين مشغولًا بنفسه. مع ذلك، كنت أريد أن يتركوني بمفردي، لأني بحضور ريما لم أكن أمثِّل شأنًا لأحد. كانوا يتقدمون إليها بكلمات العزاء. وأنا أقف إلى جوارها من غير أن يلتفت أحدٌ إليَّ. كنت أسمع كلمات المواساة التي تقال لريما وأتذكر أنه لم يكن سعيدًا معها، وأتذكر عدد المرات التي لا يمكن لي إحصاؤها التي كان فيها يوسف يلجأ إليَّ من نمط حياته مع ريما، التي كانت تريد كل شيء مرسومًا بدقة ضمن عالمها الذي ينتهي عند عتبة البيت. وكان يقهره أنها قيدت نفسها بدور الزوجة داخل المنزل، من غير أن يستطيعا تكوين عائلة وإحضار أبناء.

لم يكن بمقدوري التغافل عن تجاهل المعزين لي، لم يكن بمقدوري ألا أقارن نفسي بزوجته. وهذا أمرٌ لم أقُم به خلال حياة يوسف وقصتي معه. موته جعلني أُدرك الخسارة. إنني لاشيء. ولا يوجد ما يؤكد للآخرين أني كنت قريبة منه. كان شاقًّا عليَّ حضور العزاء. وكان شاقًّا عليَّ تجاهل الآخرين غير المتعمَّد لي. التجاهل الذي شعرتُ به متعمَّدًا بسبب شعوري بالضآلة والوحدة والعجز.

لم يكن أحد مهتمًّا بمواساتي. وأكثر من ذلك، كنت مضطرة لمواساة زوجة المغدور، وأنا وحدي مَن يعرف، أن موت يوسف الحقيقي لم يكن سوى خطوة في اتجاه حقيقة حياته مع زوجته. كان يعيش مواتًا عاطفيًّا معها، ولم أفهم موافقته السفر برفقتها، لم أجد مسوِّغًا واحدًا لسفره معها. بدا موته بالنسبة إليَّ موتًا مفهومًا، وأجسرُ على القول إنه موت عادل.

مع ذلك، كان يمكن أن أبقى في صالة العزاء بحضور المعزين. لكن ما إن خَلَت الصالة تقريبًا منهم، وبقيتُ بمفردي مع ريما؛ اكتشفت أني أمقتها. وكنت أمقتها منذ البداية. لم أكن مستعدة لتوجيه عزاء مباشر لها؛ بل كنت أقرب لأن أتهمها بقتله. وفيما كانت شفتاي تغمغمان كلمات عن الموت، كان داخلي ممتلئًا بكلمة واحدة، ينتفض بها، كلمة أشبه بالصرخة التي دفعتُ نفسي إلى كتمانها. كنت أريد أن أقول لها: قاتلة، قاتلة... وبقيت الكلمة تدور في رأسي دورانًا دوَّخني. لم أكن أمتلك صفةً لوجودي في حياة يوسف، الأمر الذي منع عليَّ أن أتهم أحدًا بقتله. كنت مثل الغرباء، أعزي ذويه. وكان يمكن أن أبقى في الصالة، وأن أقسر

نفسي على احتمال ذلك الموقف العنيف. لكن حضور المحققين وجو الترقب الذي شاع ما إن دخلوا، جعل الموقف أقوى من طاقتي. شعرت بأني المتهَمة، لأني الوحيدة التي كانت تخفي أمرًا، ولا تستطيع التصريح به. اعتقاد الحب هو ما كنت أخفي. لكن هذا الأمر، لا يعني أحدًا. ولم يبقَ من العلاقة التي جمعتني بيوسف، سوى خديعته لي.

خرجتُ من صالة العزاء، من غير أن أخبر إياس الذي كان مشغولًا مع المحققين، نظرتُ فقط إلى والد يوسف. ولمحتُ في عينيه نظرات أليمة لم يكن بمقدوري احتمالها. لكنه رآني أغادر. رآني أتلفت من حولي وأنا مغادرة. وعندما أصبحتُ خارج الزقاق، في الشارع العريض، شعرتُ بالارتياح، شعرتُ بالحرية. حقق لي موت يوسف شيئًا كان السفر يمنعه عني. نحن لن نلتقي مجدَّدًا، لن نمضي أيامًا في منزل صلنفة، هاربين من الزوجة. وعلى الأقل، أمام نفسي؛ تساويت مع زوجته في النهاية. نحن أرملتا رجل مغدور. لم تَعُد تملك تفوقًا عليَّ. وأكثر من ذلك؛ إنها مضطرة لاحتمال ثقل كلمة «أرملة»، مضطرة إلى احتمال المحققين، وإلى تقبُّل كلمات العزاء من الغرباء الذين لا يعرفون كم كان يوسف ضاجًّا بالحياة، ضحوكًا وحاسمًا. كانت صورته قوية في ذهني، إلى درجة أظن أنه هو مَن أراد موته.

بالقرب من المستشفى المركزي، وأنا أتوجه إلى غرفتي، شعرتُ بأني جائعة، كانت الساعة تجاوزت الثالثة. وبدا لي الإفطار الذي أعده إياس من أجلي حدثًا بعيدًا. اشتريتُ فطائر من الشارع، أكلتُ

فطيرة ثم ثانية، وثالثة في الشارع. إلى أن تجاوزت غرفتي غير واعية، ومضيتُ باتجاه منزل إياس. وكان إياس قد ترك لي نسخة من مفتاح المنزل قبل أن يخرج في الصباح. من غير عنف الكلمات فهمت حاله؛ من غير الجرح الذي قد تحدثه الكلمات فهمت أنه يريدني أن أبقى. ترك المفتاح على طرف الطاولة التي وضع الإفطار عليها. وعندما ارتديتُ لباس صفاء، وهممت بالخروج معه لأجل التعزية، نظرت إلى المفتاح على طرف الطاولة، وشعرت بأنه مركون هناك من أجلي. وأخذته.

وددتُ التعامل مع صفاء، بصفتها ميتةً كذلك. عدا عن أن إياس ترك لديَّ انطباعًا عندما اقترح عليَّ ارتداء ثياب زوجته السابقة، بأني قريبة منه. لم أشعر بوجود مسافة معه. كان ودودًا وديًّا يحجب عنه صفة كونه غريبًا. صحيح أني أعرف حياته كلها. لكنني أقصد أمرًا آخر، أقصد أمرًا يخصُّ إياس نفسه، لقد بدا أنه يراني من غير حواجز. ربما لأني قادمة من عالم زوجته التي أحبها طويلًا، وربما لجوئي الرهيف إليه، آلمه، وجعله يشعر بالألفة نحوي. وأذكر عندما خرج إلى عمله في الصباح قبل أن نسمع بالفاجعة، نظر إليَّ، نظرة من أرادني أن أبقى. بموت يوسف، ربما يخفف وجودنا معًا عن نفسينا مرارة الموت.

كنت قد أنهيتُ الفطائر، ولا زلت أشعر بالجوع، أخذت من محل الخضار في الحي الذي يسكنه إياس، خضارًا لأعد السلطة. وصعدتُ إلى منزله، فتحتُ الباب ودخلت إلى المطبخ مباشرةً. وضعتُ الخضار الذي أحضرته تحت صنبور الماء، وذهبت كي أبدل

ثيابي. شعرت بأني في منزلي. لم أكن غريبة في منزل إياس، وفيما يتناهى إليَّ صوت الماء يتدفق فوق الخضار، أعدتُ ثياب صفاء إلى ركنها، وبقيت عارية في غرفتها. مضيتُ إلى المرآة أنظر إلى جسدي، يتناهى إليَّ صوت الماء يتدفق على الخضار، أفكر بجسدي وكأنه جسد امرأة غيري. حتى إني لمست جسدي من غير مبالغة، فقط وكأنني أتأكد من حقيقة تلك المرأة التي تظهر في المرآة في منزل لا يخصُّها. مسلوبة بالحزن.

لمستُ جسدي بخفر الغريبة التي لم يَعُد هناك مكانٌ تعود إليه. ثم عُدت ووقفت أمام الخزانة. لم أشَأ أن أرتدي ثيابي نفسها التي حضرت بها إلى منزل إياس صباحًا؛ بل ارتديتُ ثياب صفاء. وأخذتُ أتأمل نفسي بهيئتها، أحببتُ ذلك، أحببت التمرين الذي أجريته على نفسي، كي أصير امرأةً غيري. امرأة لم تقاسِ التجاهل، ولم تعرف موت المحبين، ونكرانهم.

وتحت وَقْع هذا التمرين، أخذت جريمة قتل يوسف تبتعد عن تفكيري ابتعادًا، كان يجب أن يقلقني. لكن، لا أنكر الأمر، بينما كان صوت الماء المتدفق في المطبخ فوق الخضار يصلني إلى غرفة نوم صفاء وإياس، لم يخطر ببالي يوسف. وكل ما فكرت به، وأنا أخرج من الغرفة كي أغسل الخضار وأعده للسلطة، أن يعود إياس إلى المنزل، ويراني بانتظاره.

تركتُ المحققين مباشرة بعد أن قدمت لهم القهوة. لم أكن مرتاحًا. بدا أنهم يعادونني. وخرجت من غير أن أفكر بضرورة إخبارهم بأمر خروجي. كنت أرى نفسي بريئًا. حتى فيما يخص لين، لم أرتبك لأني كنت أُخفي جريمتها. وإنما ارتبكتُ لأنها لجأت إليَّ في الصباح الباكر، وارتدتْ ملابس زوجتي التي تركتني منذ عامين، أو أكثر، لا أستطيع التأكيد، لكن لين ارتدت ثيابًا سوداء تعود لصفاء كي تذهب للتعزية بالرجل الذي قتلته. خطتها للجريمة لم تكن كاملة؛ بدا أنها لم تحسب حساب الخروج في جنازته.

أفترض أنها القاتلة بسبب سلوكها. لكن هذا لا يكفي. ثم لا أعرف بماذا فكر المحققون وأنا أخبرهم أن زوجتي هي التي تركتني. بدا حديثي خارج السياق. لا يعنيهم. بدوت مشوَّشًا وغريب الأطوار. لكنني كنت أدفع عن نفسي تهمة أني متعلِّق بحياتي السابقة. أنا حُر. أخبرتني صفاء بذلك، أخبرتني مرارًا، لكنني لم أصدق الحرية التي جاء بها الانفصال.

خرجتُ أبحث عن لين لأخبرها أنها في ورطة، أردتُ لها أن تدافع عن نفسها. شعرت بأن المحققين يبحثون عن قاتل. ولو أخبرتهم أنها لجأت إليَّ صباح يوم الجريمة. بالتأكيد، لقالوا إنها القاتلة. أين يمكن أن تكون لين، أين أراها. متى خرجتْ من الجنازة. وكيف تركت صديقتها ريما في موقف كهذا. أشعر بأن لديها شيئًا تخبرني إياه. وسأدافع عنها ما استطعت. لا أعتقد أن أحدًا سوف

يشك بي. يوسف كان غاليًا عليَّ. حتى إنه وهبني منزلًا. يوسف كان يثق بي ثقةً مطلقة. لم يكن يريد لمنزله في صلنفة أن يُهجر. عندما أخبرني المحققون بموضوع نقل الملكية لم أقوَ على التساؤل. لكنني فهمت غايته من نقل الملكية. كان يثق بي. ولا يمكن أن أخفي في منزلي قاتلة يوسف. فقط أردت أن أسمع لين، قبل أن أخبر المحققين بكل شيء.

حاولت الوصول إلى ريما، كي أخبرها أني ذاهب لأبحث عن لين. لكن كان صعبًا الوصول إليها. إنها منهارة. السيدة والدتها بدت متماسكة. لكنني لم أخبرها إلى أين أذهب. لم أكن أعتبرها معنيَّة بالحادثة. ولو أنها ألحت عليَّ بالقول، إنها حاولت كثيرًا الاتصال بي صباح اليوم لتخبرني بما حدث. لكن بقيتُ أشعر بأنني غير معنيٍّ بمن هم حولي. فقط، أخبرتُ العجوز، الذي كان يجلس في الركن الظليل ينظر إلى الباب نظرة دائمة. وقد أومأ برأسه، لا أعرف إن فهمَ كلماتي. فقط أومأ برأسه. وشعرت بأنه يريد مني الابتعاد من أمامه، كي يتابع نظره إلى الباب. ربما يلوم العجوز نفسه. لأنه أورث ابنه مهنة متعبة. كنت أقول ليوسف وأنا أرى تفانيه في العمل، وأستنتج ارتباطاته التي لم يكن يثرثر كثيرًا حيالها: «أنتَ تحرق نفسك». وكان يهزأ من كلماتي. لا أقصد أنه كان يستخف بها. كانت تلك طريقته في تجنُّب الحديث. وكنت أثق به. وفي الآونة الأخيرة كان يتحدث بانفعال وشجاعة عن إحدى الدعاوى التي رفعها ضد شخصية لها ارتباطاتها الخارجية. مؤكدًا لي أننا نُنهَب. لم أشعر بالخوف عليه. لم أشعر بالخوف عليه، حتى وهو يخبرني أننا بلد مُختطَف. ربما ما

دفعني إلى الشعور بالطمأنينة عليه. هو ثقته. لم أكن أعرف من أين يُحضِر تلك الطاقة على الأمل. وكنت أشفق عليه من جراء حماسته الزائدة، كي لا أقول تهوره.

كان والد يوسف الأقرب إليَّ، أخبرته أني ذاهب لأبحث عن لين. إذ شعرت بأنه ينبغي عليَّ أن أخبر أحدًا. لم أكن أريد أن أقاطع المحققين، ولم يكن واردًا أن أقطع استراحة ريما، ولم يكن واردًا أن أخبر سيدةً لا أعرفها، بأني ذاهب كي أنقذ أحدهم من المشنقة التي تُعقَد حول رقبته.

وجدتُ نفسي في الشارع، لا أعرف إلى أين أذهب. ومن أين أبدأ البحث. لم أكن أعرف منزل لين. واستمررتُ بمحاولة الاتصال بها من غير طائل. فكرت في الاتصال بصفاء. لكني تراجعت. يكفي عامان وعدة أشهر، أو أكثر، لم أعُد أستطيع التأكيد، لكن مضى وقت كافٍ كي أصدق أمر انفصالنا. ثم لم أكن في مزاج يسمح لي بسماع صوتها، وحتى لو أخبرتني عن منزل لين، لن أعرف أن أستدل عليه. وفي جزء داخلي، أخذت أدرك سريعًا، أن غيابها هو سبب شعوري بالتورط مع لين. هكذا، قررت العودة إلى المنزل كي أستجمع بعضًا من طاقتي. وقررت للحظة أن أُخرج التحقيق من رأسي. أنا بريء. ولين بريئة. وقبل الأمس، لا أعرفها. ثم جميعنا يعرف القاتل ولا أحد يقوى على أن يشير إليه. في فترة سابقة كنا نقوله أمام أنفسنا، كنا نسميه، لكن لم يَعُد ثمة طائل. نحن غرقى، وننتظر أن نفقد أنفاسنا. نفدت طاقتنا على التغيير. نفدت آمالنا.

أشرق رأسي بهذه الأفكار. وجدتُ نفسي أستعيد شيئًا من هدوء

أفكاري واتزانها قبل أن أخضع لنظرات المحققين وتساؤلاتهم، واضطراري غير الواعي، لأن أكشف حياتي لهم، وأُخبرهم أن زوجتي هي التي تركتني، وأخذت ابني معها.

عندما وصلتُ حديقة الأندلس، جلست، وكان الغروب في أوجِه، لا تظهر الشمس الغاربة من الحديقة بسبب سور الميناء. هنا حتى البحر عليه سور عالٍ. ولكن كانت السماء تشعُّ بألوان الغروب. لم يُسوِّروا السماء بعد.

الفصل الخامس

المشاهد

المشهد الخامس

في زمان أعقب الحرب، كل ما فيه بات منحطًّا، بفعل الموات الذي تَسبب به موتُ الحرية؛ كان بمقدور المحققين تأليف أيِّ سيناريو. ولم يكن ينقصهم لبناء الحبكة التي أرادوها، إلا أن يثبتوا وجود علاقة تَجمع لين مع إياس، واقتصرت رواية التحقيق على ملء الفراغات التي تركها سرد الحياة.

الحبكة الجنائية جاهزة؛ علاقة غرامية دفعت إلى الانتقام. وما دفع بالمحققين إلى هذا الاعتقاد، كَشْف المكالمات الذي أجروه على خط المغدور. وكانت ثمة اتصالات كثيرة متبادَلة بين لين ويوسف. والمكالمة الأخيرة التي وردت ليوسف قبل مقتله كانت من لين. بقيت معرفة ما الذي يدفع إياس كي يتستر عليها. أظهرت التحريات شكوكًا أنها في منزله، وكان يكفي افتراض علاقة جمعتهما، ودفعت به إلى مساعدتها. فالعلاقة مع رجل يعيش وحيدًا أكثر منطقية بالنسبة إلى فتاة عزباء من عيش قصة حب مع رجل متزوج. أيضًا كان إياس الوحيد الذي نقل له يوسف ملكيةً ثمينة مثل منزل على الطراز القديم في صلنفة، وما من أمر يمنع أن ينقل له أيضًا قصة حب كان عبئًا عليه

التخلص منها. عدا أن انطباع المحقق عن إياس أنه من طينة من السهل أن يُستغَل. لكن بقي متعذرًا لدى المحققين أن يقعوا على الصلة التي جمعت لين بإياس، إذ فوجئوا من كَشْف مكالماتهما، بغياب أيِّ مكالمة بينهما. ما سيكون عاديًّا لولا إصرار جميع مَن حضر العشاء على خصوصية ما جمعهما. وعِوض أن يكون غياب المكالمات بينهما دليلًا على براءتهما، صار يؤخذ دليلًا ضدهما. وفي الأثناء، في الوقت الذي احتاج إليه خبراء قسم التحقيق لقرصنة موبايل ولابتوب يوسف كان نذير يدردش مع المحقق كي ينسجا معًا مسرحية قتل العدالة.

نذير: علينا إحضار المزيد من الشهود. شهود أبعد عن المتهمين، بدون غايات. البواب مثلًا، أو صاحب دكان قريب. لا شك أنهم رأوا لين عائدة قبل أن يسقط يوسف عن سطح البناء.

بصوت خفيض، وبنوع من الاحتجاج والشعور بالمباغتة:

المحقق الرئيسي: لكنْ كلانا يعرف أننا نفترضُ الجريمة. لا يمكن أن تكون السماء معنا إلى هذه الدرجة.

نذير: العدالة تقف إلى جانب القوي.

المحقق الرئيسي: تقصد عدالة الأرض؟

نذير: وعدالة السماء أيضًا. حتى الله يساند القوي. انظر من حولك. لا أحتاج إلى دليل على كلماتي.

المحقق الرئيسي: ربما يسانده. لكنه يسانده كي يختبره، وما إن يطغى القوي حتى يزول.

نذير: هذه فلسفة الضحية. لسنا مضطرين لها. كل الأوراق بيدنا.

ظهرت ابتسامة قلِقة على مُحيا المحقق بعد التعقيب الأخير، وكان يريد أن يطمئن ضميره بأي صورة.

نذير: أنت تعرف أن السماء معنا؛ وإلا ما الذي دفع المدعوة لين إلى التحقيق. انتبه إلى الفيس بوك. بعد أن سربوا خبرًا عبر صفحاتنا عن خيانة عاطفية محتمَلة تقف وراء الجريمة، كاد الناس أن ينسوا فرضياتهم الأولى؛ وأن ينسى الناس إلى هذا الحد، أليس فضلًا من الله؟

المحقق الرئيسي: دعني من فرضياتك عن العدالة. وصارحني، هل تعرف شيئًا عن علاقة لين مع يوسف؟ دعنا ننتهي من المسألة بأسرع وقت. أتعرض لضغوط، يريدون أن نعلن القاتل الليلة.

نذير: بالتأكيد أعرف. أنت تشكك بي.

المحقق الرئيسي: لا أشكك بك. لكن، توقفْ عن غموضك معي. نحن فريق واحد. وتسريب خبر الخيانة العاطفية مقدمة ممتازة لنتائج تحقيقنا.

نذير: كانا بالفعل على علاقة.

المحقق الرئيسي: وزوجته؟ هل تعرف؟

نذير: ربما كانت تعرف. لست متأكدًا. عدا عن أنها لم تكن علاقة جادة. وكان في حياة يوسف العديد من العلاقات التي تشبهها.

المحقق الرئيسي: إذن، افتراضنا صحيح. نحن لم نجنِ عليها. في سلوكها ما يدعو إلى الشك.

نذير: هذه عدالة السماء التي أخبرتك عنها. لقد أرسلت الطريدة إلى المصيدة. وكل ما علينا هو شدُّ الشِّباك. المسألة منتهية.

المحقق الرئيسي: وإياس؟ ما صلته؟

نذير: كان يوسف يوده كثيرًا. برأيي دعه خارج مسألة القتل. أو أعطِه دورًا ثانويًّا. لكن لا تبالغ. إنه مسكين.

المحقق الرئيسي: أنا أقوم بدوري. نحتاج إلى قاتل. طلبوا مني إيجاد قاتل، وتركيب سيناريو مقنع للحادثة. لم يشيروا إليَّ بضرورة وجود شركاء للقاتل. أستطيع أن أُخرج إياس من القضية. لكنني أحتاج إلى شهود.

نذير: سأتحدث إلى البواب. ويمكن أن يكون الشاهد الملِك. لا تقلق. ساعات ونعلن القاتل للناس. السماء معنا. العدالة مع القوي.

كانت لين تجري إلى المصيدة، غافلةً، معتقدة أن الحياة ستتيح لها العودة إلى يومياتها. وبناء علاقة جديدة آمنة مع طليق صديقتها الذي استمر يشكو في أثناء التحقيق أن زوجته هي التي تركته. لكن لم تكن تلك الفتاة اللاهية لتقدِّر أدوار الآخرين في عالمها؛ ليست كل العلاقات خالية من المفاجآت. قد يكون مبالَغًا به، أنْ تحمل لها علاقتها اللاهية مع يوسف، اتهامًا بقتله. ولو أن يوسف أيضًا لأسباب مشابهة بدا أنه مَن قَتَل نفسه. بدا أنه دخل لعبةً تنتهي بقتله. وما من دليل على الولاء لجهاز الحكم سوى قتل النفس. وما من مصير لمرتد، لمفارق الجماعة؛ إلا القتل.

هناك أسرار لا يمكن لمن عرفها أن يبقى حيًّا، وأن يبقى في مأمن من المعرفة. هذه ضريبة الفضول. معرفة أسرار الآخرين أمر خطر. لا يمكن لإنسان أن يتجاهل سرًّا عرفَه، أو كان جزءًا منه. كلٌّ من لين ويوسف صنعا موتهما. حتى لَيخال المرء أن عدالة السماء، بالفعل،

تقف إلى جانب القوي. لأن القوي يعرف متى يكون فضوليًّا، ويعرف أين يضع أسراره.

بدا المحققون سعداء وهم يسبكون الجريمة، ويربطون خيوطها معًا. وبدأ المحقق يميل إلى تبرئة إياس، بعد أن شعر بسهولة توريطه. وبدا توريطه عملًا من غير طائل. لكن بقي لدى المحقق الرغبة بإلحاق الأذى بإياس، وقد أراد أن ينقذه من استمراره العيش بصورة عاطفية واهمة، وربما أراد أن يدفع به، إلى التفكير بإنقاذ نفسه. لقد بدا إياس حتى بالنسبة إلى المحققين، رجلًا خارج منطق الحياة، الأمر الذي فسَّر لهم ثقة يوسف به وتخلِّي زوجته عنه.

في الأثناء لم يكن هناك حاجة فعلية لأخذ إفادات ريما أو ناديا. لكنْ عملًا بالشكليات، ائتلف المحققون من جديد في المطبخ، ونادوا على ناديا لِسماع إفادتها.

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

المشهد السادس

دخلت ناديا المطبخ الذي اعتادت دخوله كي تشارك ابنتها الأحاديث اليومية. وتسببت رؤية ناديا للمحققين يجلسون بانتظارها في دوخة، حتى إن أصغر المحققين سنًّا نهض من فوره، وساعدها على الجلوس، ثم أحضر لها ماءً. نظرت ناديا إلى يديه الناحلتين وإلى عينيه الهادئتين، شكرته:

- الله يسقيك.

قابل الشاب دعوتها بابتسامة سمحة، ثم أمسك يدها وربت عليها بلطف:

- الله يَطوِّل بعمرك.

وَقْع كلماته عليها كان مباغتًا. شعرت بأنها كبرت. وكأنها شاخت في غضون ساعات. حتى إن دعوتها للشاب عادت بها إلى الدعوات التي كان يطلقها والد يوسف قبل أن يفقد جسده القدرةَ على أيِّ تعبير. حتى لكأن ناديا زرعت الشَّبه بينهما في لاوعيها. أرادت أن يبدأ التحقيق كي تهرب من مقاربتها الصامتة السريعة مع نهاد. ثم نظرت في الفناجين الفارغة أمامهم، واقترحت كي تؤكد أمام نفسها

على صلابتها، وكي تلتهي عن الارتباك الذي أصابها؛ أن تعدَّ الشاي للمحققين الذين تعبوا خلال النهار من الاستجواب المتواصل. ولم يمانعوا. كانت مسألة إيجاد القاتل قد انتهت بالنسبة إليهم. لم يبقَ أكثر من رتوش بسيطة على الحكاية التي نسجت نفسها. كان المحققون قد بدأوا بالفعل التفكيرَ بما يلي إعلان نتائجهم. ولم يلحظوا التغيير الذي طرأ على ناديا، لم يلحظوا النشاط الذي امتلأت به، وقد وضعت الإبريق على الغاز، وعادت لتجلس مقابِلة لهم. وسرعان ما سألها المحقق عن رأيها برواية انتحار زوج ابنتها، وأفاضت تقول:

ناديا: يوسف، كما تعرفون، زوج ابنتي الوحيدة. ويصعب عليَّ أن أقول كلماتكم هذه. لأنها تُحمِّل ابنتي شيئًا من مسؤولية موته. فالرجل في ثقافة جيلي، مسؤولية زوجته. لا أقدر على القول إن يوسف انتحر. يمكن أن أحكي لكم حكايتهما كما أراها. لكنني لا أقدر على القول إن زوج ابنتي الوحيدة مات منتحرًا. هذا شاقٌّ عليَّ. (شربت ماءً حتى استطاعت أن تكمل) عدا أني لا أعتقد أن يوسف كان تعيسًا معها إلى درجة أن يقتل نفسه. (توقفت عن الحديث) ربما تتساءلون عن عدم وجود أبناء في حياتهما، وهذا تساؤل محقٌّ. لا أريد القول إن الأوضاع الصعبة التي نعيشها، وتعرفونها، هي السبب. ولو أن بمقدوري أن أهرب من الحقائق عبر حجة الظروف الصعبة التي نعيشها. لكنني سأقول المسألة كما أراها. (أخذت نفَسًا عميقًا) المؤكد أن ابنتي أحبت زوجها حبًّا كبيرًا، المؤكد أنها أرادت سعادته. وكانت تهتم بلباسه وبطعامه،

وبالطريقة التي ينبغي له أن يظهر بها كل يوم. ربما اقتصر اهتمامها العاطفي به على الفرح بإنجازاته، وعلى الحزن بسبب الأوقات التي لم تكن تستطيع فيها أن تُدخل السعادة إلى قلبه. لكن كيف أقول كلماتي هذه ولا تزال روحه بيننا؛ زوجها هو المسؤول عن اقتصار علاقتهما على تلك المسائل الشكلية. إذ لم يكن يراعي شعورها. ولم يكن يشركها بصورة فعلية في حياته. ربما عزوفها عن الإنجاب منه جرح شيئًا في علاقتهما. لكني لم أشعر بأنها مرتاحة معه منذ بداية زواجهما. هي لم تقل لي. لكنه حَدْسي تجاه ابنتي. أقول هذا. وأنا أريد أن أنصف يوسف. (تصمت لحظات) وأريد أن أقول ما أعرف لأنني في حضرة العدالة.

أثار ذكرها للعدالة حفيظة المحقق الرئيسي، حتى بدا عليه الضيق. تلفَّت إلى المحققين على يساره من غير أن يتحدث، ونظر إلى الإبريق.

ناديا: أرجو ألا تروا في كلماتي وقاحةً. لكن يصعب أن يكون الإنسان سعيدًا بلا حياة عاطفية وجنسية جيدة. يمكن للإنسان أن يتشاغل، أن يلعب الرياضة أن يعمل عملًا يحبه. لكن لا مناص من الشراكة الجيدة في مرحلة من مراحل العمر. أقول هذا، لأشير إلى الشقاق الخفي الذي كنت أحدسُ به بينهما. وهو شقاق مشترك في معظم الزيجات التي أعرفها. لكن، لم نجد أحدًا ينتحر لأسباب كهذه. ابنتي بريئة. حتى لو كان زوجها مات انتحارًا. صحيح، كان في علاقتهما شيء مخروب. وكأنما أحدهما أساء إلى قداسة تلك العلاقة، وأظنه يوسف، والآخر لم يستطع أن يسامح، وأظنها ريما. لكن، لم تبلغ الأمور مبلغ استحالة الحياة معًا.

انتبهت إلى ثبات نظرات المحقق إلى الإبريق، نهضت، قطعت حديثها وأعدت الشاي للجميع، ثم تابعت من حيث توقفت. وكان يبدو اجتماعهم في المطبخ أقرب إلى جلسة عائلية:

ناديا: يوسف أيضًا أحبَّ ريما، الأمر الذي أزَّمه. وأشك في نجاحاته كلها، لأنني لم أكن أراه سعيدًا، لأنني أعرف أبعاد كآبته. هما لم ينجبا أطفالًا، بسبب طبيعة علاقتهما. وكنت أرى ريما تُعامله، وكأنها استعاضت عن الابن بالزوج. (رشفت القليل من الشاي) هذا ثقيل على أيِّ رجل. وأظنه السبب الذي جعل علاقتهما الحميمة تضطرب اضطرابًا حطَّم رَجُلها، وأساء إلى أنوثتها. ابنتي جميلة. (تنهدت وصمتت لحظات) أظن أن ريما، أرجو أن تسامحوني على كلماتي، لكنني أظن أنها كانت ترى في استمرار علاقتها بزوجها نوعًا من الخطيئة. (بصوت حاد) لكن لا أستطيع أن ألومها، عندما لا يكون الزوج ناضجًا، سرعان ما تراه زوجته طفلًا. المرأة ترى الرجال، إما رجالًا أو أطفالًا. إما تأخذهم محمل الجد، أو تعطف عليهم. وأظن أن ريما كانت تعطف على زوجها. (تنهدت) لذلك كانت تتساهل في مرحلة من زواجهما مع علاقاته خارج الزواج. لكن الأخطر، أن زواجها كان يغير شيئًا من طبيعتها. ربما ليس الزواج باعتباره زواجًا، وإنما الشكل الذي كانت حياتها تمضي وفقه. وحتى لا أبالغ بالقول، كان يمكن أن تقتل زوجها في لحظة. (سرعان ما استدركت جزعةً) لولا أن القدر تدخَّل وأخذه منها على طريقته.

لم يستطع أيٌّ من المحققين الثلاثة أن يخفي حيرته من سماع

إفادة ناديا، وبدا أن السيناريو المغلق الذي افترضوه للجريمة التي كلِّفوا بتزييفها، سيناريو باهت. وللحقيقة كما يبدو جاذبية لا يصلها التخيل. إذ نهضت فرضية أخرى مقابل فرضية القتل، ولا تقلُّ وجاهةً عنها، وهي أن يوسف، بالفعل، قتل نفسه، أو زوجته هي التي قتلته.

بدأت الكلمات تخرج بصعوبة من المحققين، بدا أنهم مباغَتون من وضوح ناديا، وقدرتها على قول أمور غير مألوفة، بطريقة عادية. وكأنها كانت تدور في رأسها طويلًا قبل أن تخرج إلى الآخرين. هنا تساءل المحقق، وقد أبعد عنه كأس الشاي:

المحقق الرئيسي: تقصدين أن ريما كانت تعرف بعلاقة يوسف مع لين؟

ناديا: وكانت تعرف بعلاقته مع طليقة صديقه إياس. (سرعان ما وجدت نفسها تعتذر) أنا آسفة. لا أريد أن أكذب في حضرة العدالة. حتى بالنسبة إلى البيت الذي تركه يوسف لصديقه إياس، أظن أن يوسف وهبه المنزل، كي يُجري تسوية مع ضميره. لأن إياس لا يعرف بالخيانة.

تركها المحققون تتحدث على سجيتها. وشعروا بأنها خلطت أوراق التحقيق بالكامل. ثم أعادت ترتيبها لتناسب روايتهم. أخيرًا وجدوا الدافع لإشراك إياس في قتل يوسف.

ناديا: لا أرى إياس مذنبًا. ولا أرى في المنزل الذي تركه يوسف له إدانة. وهو منزل لا يقدَّر بثمن. ولو أنكم تزورونه تعرفون ما أقصد. لكن يوسف تركه من أجل أن يوقف صراعه مع نفسه، وقد اعتقد نفسه أنه تسبَّب في طلاق صديقه وإبعاد ابنه عنه.

مساعد المحقق: لكن كيف تعرفين؟ هذه الأمور تبدو جوَّانية. إنها أسرار خاصة.

ناديا: أنا أعرف لأن يوسف في مرحلة من زواجه، لم يَعُد مباليًا بأسراره داخل المنزل. وفي فترة، اعتقدت أنه يكشف أسراره أمام ريما، كي يثير فيها غيرةً ما. خوفًا ما. لكن ريما التي استعاضت عن رغبتها به بأمومتها له، كانت في نقطة داخلها، تشفق عليه. عرفتُ هذه الأسرار. وهي تجرحني الآن. لذلك أنا أقولها. يوسف كان يحتاج إلى بداية جديدة كليًّا. وصفقته مع إياس نوع من التصفية قام بها مع نفسه. خاصة أنه كان ينظر إلى الحياة نظرة مادية، وكان شخصًا غيورًا.

المحقق الرئيسي: لماذا انتحر إذن؟ (سألها المحقق أشبه بالهتاف).

ناديا: كبرياؤه لم تسمح له بالسفر الذي كان مضطرًّا عليه. ثم البدايات تحتاج إلى الجرأة. تحتاج إلى خطوة أولى. ويوسف يغطي على جبنه، بتلك الدعاوى الخرقاء التي كان يتوكل بها. عدا أن أذى كبيرًا تراكم في داخله. في النهاية؛ أين يهرب الإنسان من نفسه؟

قالت جملتها، أخذت رشفة غير قليلة من الشاي، ونظرت ببرود إلى المحققين. أعقب حديثها صمت ملأته بتساؤل:

ناديا: ثم علاقاته كانت مع نساء في الجوار؛ أقصد زوجة صديقه وصديقة زوجته. ألم يترك لديكم هذا تساؤلًا عن طبيعته المركبة؟

فوجئ المحققون، لا من انقلاب الأدوار الذي أجرته هذه السيدة ببساطة، وإنما في محاولتها إشراكهم فيما ذهبت إليه من فرضيات. وبدا لمتانة حجة السيدة، وقراءتها لشخصية زوج ابنتها، بدا لهم بالفعل غياب الجريمة. شعروا بأن ثمة حلقة مفقودة. كان المحقق

الرئيسي يحتاج الحديث إلى رجل الحكاية الغامض، كي يعيد معه ترتيب الدقائق الأخيرة من حياة يوسف. هل دفعه عن سطح البناء؟ أم أن يوسف فعلها من غير تدخله. أم هل دفعه عن سطح البناء برفقة ريما؟ أم ريما حاولت دفع نفسها ويوسف همَّ بإنقاذها فسقط سقوطًا عبثيًّا. النهاية العبثية أكثر ما يلائم هذه الحكاية. جال هذا الخاطر في ذهن المحقق. لكنه عاد إلى التفكير، أن ما يشغلهم ليس وجود الجريمة من عدمه، وإنما إقناع الرأي العام أن جهاز الحكم لا يزال يمثل الدولة. وقد بدا حديثُ ناديا، تشتيتًا لمهمتهم.

إلى جانب ذلك، كان المحقق الرئيسي يشك برجل الحكاية الغامض، يشك بنزاهته. فالرجل لن يقول معلومةً واحدة لا تصبُّ في خدمة التحقيق كما أرادت الجهات العليا للتحقيق أن يظهر. أشفق المحقق على السيدة التي تجلس مقابلةً لهم، وفي ظنها أنها تجلس في حضرة العدالة.

عندما طال شرود المحقق، الذي قطعته رشفات الشاي من المحقق الشاب معهم. اندفع مساعد المحقق إلى إجابة السيدة في تناغم الفريق الذي يريد الحفاظ على علاقة القوة القائمة بينهم وبين السيدة:

مساعد المحقق: نحن من نسأل هنا.

ناديا: أنا آسفة.

قالتها بنبرة باردة، وكأنما لم تكن تقصدها. وقد شعرت بأنها تفوقت على فريق المحققين، ثم جاءت المفاجأة من تدخُّل المحقق الذي أجابها:

المحقق الرئيسي: صحيح. اختياراته العاطفية تركت لدينا تساؤلات. لكنها لم تصل إلى الاعتقاد بأن يقتل أحدهما نفسه. أو أن تقتله زوجته.

جزعة من اتهامه لابنتها تركت كأس الشاي ملسوعةً، وانطلقت تقول:

ناديا: أنا متأكدة من عدالتكم. متأكدة من صواب تحليلكم للحادثة المؤسفة. يوسف إنسان رائع، لم أقل غير هذا. لكن التعاسة التي كان يعيشها كانت بسبب خصاله الغيورة، وبسبب هوسه بالتفوق على الآخرين والمقارنة معهم. لا بسبب ابنتي ريما التي أحبته. وعدا ذلك، كان يؤدي دورًا خطيرًا وكبيرًا عليه.

قال صغيرهم مندفعًا بحماسةِ الموقف، قبل أن ينظر إليه مساعد المحقق نظرات مستاءة ليقطع جملته:

المحقق الشاب: تقصدين عمله؟ يعني تعرفين...

لم تعقب السيدة التي أثار استغرابها نُطق جملة غير كاملة من الشاب الذي ساءتها دعواته لها منذ البداية. تجاهلته، ثم عقبت تعقيبًا موجزًا، كي تخلِّص المحققين من اضطرابهم بعد تدخُّل الشاب:

ناديا: أقصد حياته كلها. عمله ليس إلا تفصيلًا من تفاصيل حياته. إذا أردتم أن تعرفوا سرَّ الموت المبكر للشاب، انظروا إلى مشواره في الحياة. كان يوسف يجرب أن يكون قديسًا، لكنه كان نرجسيًّا بصورة مفرطة. في جوهره، لم يكن ناضجًا كفاية. لا أقول إنه كان شريرًا يرتدي ثوب الملاك. معاذ الله. ما أقوله، ولا أعرف لماذا أجدني مضطرة إلى شرح كلماتي. (تنهدتْ) إنني أشك بسبب حبه للظهور؛ إن كان الخير أصيلًا لديه. أظن أنه كان يجرب احتمالات في

داخله. لا تنسوا أن تجربته كانت استكمالًا لتجربة والده. لو أتيح له الوقت كي يبني تجربته الخاصة، ربما كان وصل إلى مكان مختلف بشكل كامل عما بدأ به.

المحقق الرئيسي: تعتقدين أنه تورط في دور المحامي أكثر من اللازم؟!

ناديا: حضرة المحقق. اسمحوا لي. أنا أُم. ما يشغلني هو علاقته بابنتي. الزواج نفسه كان ثقيلًا على يوسف. لم يكن جاهزًا له. ولا أعرف ما الذي دفعه إليه. ربما غَيْرته من صديقه إياس. في يوسف شيء غير ناضج. أكرر ذلك، لأن هذا كان يسبب الأذى للآخرين. بالنسبة إلى عمله، ربما لم تكن مرتاحة. هذه حدود معرفتي. ولو أن أخي نذير هو من ساعده على بناء علاقاته. وعاد نذير ليشتكي لي من أن طموح يوسف طموح أحمق. لكن على نقيض علاقاته الغرامية، كان المرحوم (رشفت بعض الشاي) كتومًا فيما يخص أشغاله. يوسف أحبَّ ريما. هذا مؤكد. وأنا كامرأة وكأُم، أقرأ الحادثة هكذا؛ شريك ابنتي، لا أقول إنه انتحر، وإنما بصورة ما، لم يَعُد موجودًا، ما يفسر بحثكم عن الجاني. إلا أن الجاني يوجد داخل يوسف، يوسف عدو نفسه.

المحقق الرئيسي: دعينا نعود إلى البداية، تبدو علاقته بإياس مفتاحًا لفهمه. لقد تعرَّف إلى ريما، كما فهمنا عن طريق المدعوة صفاء، وفي حفل زفافهما. ثم كما عرفنا منكِ، بدأ يوسف علاقةً مع صفاء في مرحلة متعثرة من زواجها بإياس، انتهت بسفرها وطلاقها. والآن، تقولين إنه أساسًا تزوج بدافع من زواج صديقه. تبدو صداقتهما مفتاحًا في حكاية الموت. وأراها حكاية عن الصداقة بقدر ما هي

حكاية عن الحب. اسمحي لي أن أسألكِ؛ هل تعتقدين أن إياس يعرف بأمر الخيانة؟ وهل تجزمين إن لم يكن قد اعتبر المنزل الذي لا يقدَّر بثمن إهانة؟!

ناديا: حضرة المحقق، لا أحد يقتل أحدًا بسبب الشعور بالإهانة في سورية. (رشفت ما بقي في كأس الشاي دفعة واحدة).

وكانت إشارتها ترمي بلا مواربة إلى أقصى أمداء التحقيق. كانت تريد القول جميعنا مهانون. ولم تستطع أن تحبس ابتسامتها التي تشير دون رَيب إلى أنهم يعيشون أساسًا في بلد مُهان. الأمر الذي شجع مساعد المحقق على الحديث، في الوقت الذي كان فيه المحقق الرئيسي مصعوقًا من كلماتها.

مساعد المحقق: مع أنكِ وجدتِ في لحظة، احتمال أن تكون ابنتكِ هي القاتلة بسبب شعورها بالإهانة.

ناديا: صحيح. لكنها ابنتي. أنا لم أقل إنها القاتلة. قلت إن حياتها مع زوجها كانت تسير بها إلى تغيير في طبيعتها كأنثى. وهذا شاق. عدا أنه أمر يخصنا كعائلة. وربما تماديت في أفكاري قليلًا.

المحقق الرئيسي: لكننا نبحث عن قاتل. عن أدلة. لا عن استنتاجات.

ناديا: ليس إياس القاتل. وهو لا يعرف بخيانة زوجته له مع صديق عمره. وأرجوكم، أن تجدوا طريقة كي لا يعرف. أو على الأقل، ألا يعرف بأنكم عرفتم بهذا عن طريقي. لا أريد أن أجرح إياس. فهو عزيز عليَّ، هو عزيز علينا جميعًا. وقد حاولت الاتصال به صباح اليوم كي يكون إلى جانبنا، لكنه لم يرد عليَّ. أرجوكم أن تنظروا إليه، نظرتكم إلى رجل عزيز قد ذُلَّ.

المحقق الرئيسي: نحن أمام جريمة شغلت الرأي العام. لا نستطيع أن نَعِدكِ.

ناديا: أيًّا كان قاتله، فإن يوسف هو من نادى على موته. (بصوت حزين جاد ومنهك) أنا آسفة. تعبت. اسمحوا لي. سأخرج. أريد أن أتنفس.

أبعدت كأس الشاي. ونهضت من مكانها من غير أن تنتظر أن يأذن لها المحققون. شعرت بأنها انتهت من الكلام. وبالنسبة إلى ناديا، حتى لو أثبت المحققون وجود الجريمة، لاستمرت برؤية موت يوسف انتحارًا بدوافع تأتي من داخله. حتى لو تأكد أنه قد قُتل، لكانت متأكدة، أن يوسف هو من نادى على موته. ولو كانت مكان القضاء، لحكمت على القاتل الذي تفترض وجوده، بالبراءة. ولو أن ريما هي التي قتلت زوجها، لكانت أيضًا حكمت لها بالبراءة؛ بحكم الأذى الذي داخَل علاقتهما وطال عالمها الداخلي.

خرجت ناديا إلى الصالون، تلتقط أنفاسها، نظرت إلى نهاد والكراهية لتلك العائلة تشتعل في داخلها. وذهنها يتفتق عن احتمال ارتكاب ابنتها للجريمة. ثم مضت إلى ابنتها، والشفقة تعتصر قلبها. حتى إنها شعرت في تلك الأثناء، بأن ابنتها رهينة في منزل عائلة لا تعنيها، ولم تسبب لها سوى الألم.

تركت ناديا المحققين تحت تأثير كلماتها الصادمة. وبدا مؤكدًا للمحقق الرئيسي أن يوسف تُوفي منتحرًا، أو بالفعل، كما عبَّرت ناديا تعبيرها الذكي؛ نادى على موته. لكن هذا اصطلاح غير قانوني. وقد داخلت المحقق الرغبة بأن يعيد التحقيق إلى بداهته، بأن يؤجل إعلان نتائجه. ويعطي القضية وقتًا. وقد ترك حديث ناديا عن زوج ابنتها في

نفسه شيئًا من الحزن. أراد للحظة أن ينصفه، وجاءه انطباع يحمل أسف الكهول تجاه طيش الشباب وعَجلتهم في ترتيب شؤون حياتهم.

فكر المحقق على نحو أبوي بيوسف؛ كان يمكن ليوسف أن ينفصل عن زوجته، يتزوج من جديد، ويبني حياة بلا مغامرات تسرق لذة العيش العادي. كان بوسعه أن ينجب أبناءً، فالأبناء تعفي الرجال من التفكير بالمجد. كان يمكن لريما أن تفكر بإنجاب الأطفال، والتحرر من ظلال العيش تحت سطوة امرأة أنانية مثل ناديا، وفي ظل امرأة أخرى هي صديقتها.

كان يمكن للمحقق أن يعيد ترتيب الحكاية بناءً على ما عرفه من علاقات نسائية، ووفق ميول يوسف العاطفية والنفسية. لكن كانت الاتصالات تُلح عليه كي يكشف عن القاتل المفترَض من جهة، واتصالات أخرى تبارك إشاعة الخيانة العاطفية التي تقف وراء جريمة القتل. شعر المحقق الرئيسي بوجود جواسيس داخل التحقيق، ينقلون ما يجري إلى الخارج. لكنه لم يتوقف طويلًا عند هذا. فالمسرحية بكل تفاصيلها غارقة في السوء. ولم يتأخر الخبراء الذين اجتهدوا لساعات في قرصنة لابتوب يوسف، في دفع المحقق إلى العزوف عن التفكير بالبحث عن الحقيقة، والعودة إلى العمل وفقًا للمهمة المرسومة.

* * *

عندما جاء الخبراء بلابتوب يوسف كانت الصورة قد بدأت تتضح للمحقق. لم يفاجأ من وجود صور تجمع لين مع يوسف بمفردهما، وأخرى تجمعه مع إياس وصفاء بوجود ريما، وصور أخرى تجمعه

مع صفاء بمفردهما. كما لم يكن صعبًا لمن يرى صور يوسف مع صفاء ولين في منزل صلنفة أن يدرك خصوصية ما يجمعه بهما. كانت ريما تظهر في صور متباعدة لهما معًا بمفردهما في المنزل في حي الأميركان، في مناسبات الأعياد وأعياد الميلاد. وكأنما كانت حريصة على طقوس من هذا النوع. وكانت هي الصور ذاتها التي تنشرها على حسابها على الفيس بوك. كانت حياته العاطفية بالفعل، مستباحةً. ولم يبذل جهدًا في إخفائها.

في محادثاته الأخيرة على الفيس بوك، التي قرأها المحقق بعجالة، وفي داخله شعور من يجلس إلى جوار جثة بدأت رائحتها تفوح من حوله، لم يُفاجأ بأن صفاء كانت آخر من كتب له. وكانت تتمنى له بداية جديدة يستطيع فيها طي الماضي كما فعلت. واستخدمت تعبيرًا، «أتمنى أن تطوي الصفحة». ثم بدا أن يوسف شكك بقدرته على أن يطوي الصفحة. كتب لها ما مفاده صعوبة نسيان الذكريات. واستفاض يشرح لها صعوبة سفره مع ريما، عليه. كان يظهر في المحادثة ذلك الطابع الذي تتركه الصداقات العميقة التي لا يخشى معها المرء انكشاف دخيلته. لم يكن يوسف يريد السفر مع ريما، في الوقت نفسه كان مضطرًّا لأن يسافر بسبب مخاطر العمل. وصعوبات لا يعرف كيف يخرج منها... بهذا التعبير، أوضح لصفاء، ألا مناص من سفره. لكن سفره مع ريما، هو ما يرهقه، إذ لم يَعُد يريد الاستمرار معها.

بدا للمحقق أنهما عاشقان قديمان، أو على الأقل يوسف أحبها. وإن لم يحبها، فعلى الأقل أرادها أن تستمر في حياته بصورة من الصور. وكانت صفاء تجد ذلك صعبًا عليها الاستمرار فيه.

يوجد أشخاص يثيرهم أن يعيشوا تحت تهديد الفضيحة، وأنهم بسلوكهم يهتكون قداسةً ما. وكأنما كان يوسف من أولئك الذين يسعون إلى أن يكونوا مدانين. وربما لم يكن استهتاره بخصوصياته، إلا جزءًا من لعبته النفسية التي تحتاج إلى الآخرين كي تتم. أو ربما سئم تلك التورية لحياته، تلك الاستباحة المؤجلة لقداسة ما يحيط به. وأراد بانتحاره أن يحطم قداسة الحياة نفسها.

رسائله مع لين أظهرت الأمر مختلفًا؛ كانت محادثاتهما معًا مجرد ترتيبات لأجل اللقاء. على الأرجح لين هي التي كانت متمسكة به. فكر المحقق بأرجحية ذلك من تحليل عبارات تَبادَلاها في ماسنجر الفيس بوك، قبل أيام من سهرة العشاء المشؤوم تلك. لم يتحدثا في أمر السفر ولو مرة واحدة. لكن في المرات المتباعدة الأخيرة، كان يوسف يُلمح للين بأنها يجب أن توسِع من عالمها. أحيانًا كان يطلب إليها أن تعود للعيش مع أحد والديها، وأحيانًا يقترح عليها التقديم إلى المنح الجامعية. كان يبدو مهتمًّا بها بالمعنى العام، وكانت تطلب أن تراه كي يتحدثا أكثر ووجهًا لوجه. لم يكن يمانع لقاءها. لكن لم يبدُ متحمِّسًا الحماسة ذاتها التي تظهر في محادثاته مع صفاء. لم يكن توَّاقًا إليها. وعندما عاد المحقق بالمحادثة إلى وقت أبعد رأى تفاصيل حميمة كانا يقولانها لبعضهما، ثم، بالطريقة نفسها يتواعدان.

فكر المحقق الذي كان يسابق الوقت كي يضع السيناريو الأخير للجريمة المفترضة، أن علاقة يوسف ولين أقرب للحماقة، تبدأ كبيرة ثم تخفت حرارتها مع تواترها. لكن علاقته مع صفاء، بدت أشبه بالذكرى التي كلما ابتعدت، ازدادت حضورًا وتأثيرًا. تأكد للمحقق أن

يوسف أحب صفاء، ومارس الجنس مع لين، وعاش حياته مع ريما. أشفق عليه، إشفاقه على كثير من أبناء جيله الذين بفصلهم العاطفة عن الجنس، بدا أنهم فقدوا المعنى، والانتحار بداهة لمن فقدَ المعنى.

كان رجاء المحقق أن يُتاح له الاستمرار في سبك حكاية المُتوفى، لتعقيد صِلاته النسائية. لكن عندما وصل إلى ملفات عمله هاله نشاطه، هاله بعض ما قرأه، إذ كان يعرف بحكم سنوات العمل الطويلة في اللاذقية، أن ثمة أسماء ليس من الحكمة الاقتراب منها. وبدا واضحًا للرجل ما يدفع جهات عديدة إلى الإسراع في طلب إيجاد قاتل، لأن أيًّا منهم، يمكن أن يكون تحت الاتهام، ولم يكن أيٌّ منهم يحتمل تبعات الرأي العام الذي طحنته الحرب بصورة مريرة، إلى درجة أنه عندما كان يصحو، يصحو عنيفًا. وكان على جهات عديدة أن تفعل ما بوسعها كي تغلق هذه القضية بأسرع وقت ممكن.

المشهد السابع

لم يتأخر نذير، رجل الحكاية الغامض بدفع التحقيق إلى الوجهة المطلوبة. وقد عاد بالفعل، ومعه ما خرج من أجله. طلب رؤية المحققين، ودخل إليهم، ثم أخذه المحقق الرئيسي إلى شرفة المطبخ صغيرة المساحة، والتي تملأها أصص الورد. وهناك، من بين الحبق وأنواع الصبار المختلفة قال له المحقق بصوت خفيض:

المحقق الرئيسي: يوسف مات منتحرًا. أو الأرجح زوجته هي التي قتلته.

نذير: (متفاجئًا) أنا فقط من يعرف كيف مات. كنت موجودًا.

المحقق الرئيسي: لكنني لا أصدِّقك. عدا أنك لم تخبرنا كيف، ومن رماه عن السطح. اعذرني. الدوافع قادتني إلى الاعتقاد بأن الشاب مات منتحرًا. وهذا ما أفكر بأن أذكره في خلاصات التحقيق، أو سأحيل الجريمة إلى زوجته.

نذير: لن تفعل هذا. ريما ابنة أختي. وسوف أحميها. حتى لو اضطررت إلى الاعتراف بالحقيقة، وتبنِّي الحادثة بمفردي. دع ريما تسافر بسلام. (بعد صمت) لو تبنيت أنا مسألة القتل؛ تعرف تبعات

ذلك عليك. وعدا ذلك، لن يتركوني في الداخل. سوف يخرجوني من السجن. لا تُعقد المسألة؛ لدينا قاتل. وهي لين. ثم لماذا ينتحر شاب ناجح وطموح مثل يوسف؟ كيف يقتنع الناس بروايتك، أو بأن زوجته هي التي قتلته. هذا تخريف.

المحقق الرئيسي: حياته كانت كئيبة.

نذير: وهل الكآبة سبب للانتحار؟ عدا أن كآبته كانت بسبب حماقته واعتقاده بإمكانية أن يعرف المجد. ثم، بالله عليك، ما الذي يعنيه اليوم أن يكون المرء كئيبًا؟ هذا مرض العصر.

المحقق الرئيسي: علاقاته النسائية مضطربة اضطرابًا كبيرًا. اعذرني، أعرف أنه صِهرك. لكنني لا أجد ضرورة لخلق القاتل. يوسف هو من قتل نفسه. وهذا ما سأورده في خلاصات التحقيق.

نذير: أنا من أدخلت يوسف في المسائل التي أودت به. كي أخدمه. لكنه لم يقدِّر ما قدمته له. خرَّب مستقبله بأخلاقياته الدعيَّة الزائفة. ولا أريد أن أشعر بالذنب، بأن أدفع بريما ابنة أختي إلى السجن. (يصمت) اعتبِرها مسألة شخصية. الشعور بالذنب ممنوع في عملنا.

المحقق الرئيسي: أريد أن أنصف موته.

نذير: أدِّ دورك فقط. لا يوجد مكان لاستنتاجك هنا. المطلوب أن نجد قاتلًا. وهو موجود. عليك فقط أن تستمع إلى الشهود الذين أحضرتهم، وأن تنهي مسألة العدالة هذه التي فَطِنتَ لها. هذه مسرحية ونحن مجرد شخصيات مكتوبة فيها.

وصمتا، وكان يمكن أن ينتهي صمتهما، إلى عِراك. وَصَلهما إلى حيث يقفان صوت موبايل المحقق. وهو يعرف أن أحد المتورطين

بدوافع القتل، يستعجل إعلان تفاصيل الجريمة. وقد انتبه المحقق، والصمت الحذِر يلوب بينه وبين الرجل القوي، أنه لم يَلمح حزنًا على يوسف لدى قريبه. كان صلبًا صلابةً، بدا معها أن الحادثة التي حدثت البارحة، كأنها حادثة بعيدة، وكأنهم يكشفون آثار جريمة قديمة. وقد أنهى المحقق الصمت بالاقتراح:

المحقق الرئيسي: سأكتب في تحقيقي ما تريدون. لكن أريد أن تجيبني. واعتبِر الأمر معروفًا شخصيًّا تقدمه لي.

نذير: لستُ هنا لأجيبك خارج التحقيق.

المحقق الرئيسي: لكن يمكن أن آخذ التحقيق إلى وجهة لا تريدونها.

نذير: إن كانت المهمة شاقة عليك، دعني أوصل الصورة لأصحاب الشأن. لكنك تعرف خطورة هذا الإجراء على مستقبلك.

المحقق الرئيسي: (مرتبكًا) نحن نتناقش كأصدقاء، أو إذا شئت كشركاء، أو لتسمح لي؛ كقتلة...

نذير: سأعتبر أني لم أسمع هذه الكلمة.

المحقق الرئيسي: إذن، بالفعل، أنتَ لم تقتله؟

نذير: حقِّق معي. لن أجيبك خارج التحقيق.

المحقق الرئيسي: تعرف أني لن أفعلها. لكنني آسف على موت يوسف. بعد أن سمعتُ حكايته الحزينة من والدة زوجته.

نذير: ناديا تبالغ. دعنا نعود إلى العمل. لا تهتم. أنا أيضًا آسف لما أوصَل يوسف نفسه إليه. لكن ما العمل؟ لم يَعُد موجودًا. دعنا نخفف الخسائر. (بعد صمت) ثم صدِّقني، أنا أقوم بكل ما أستطيع به، كي أوقف تداعيات موته هنا. لا تنسَ أنني كنت معه خطوة بخطوة

في الكثير من المشكلات التي كانت تفاجئنا. لكن هذه المرة لم أستطع أن أساعده. إنه مغرور. وهو من أراد أن يموت. نحن أمَّنَّا له الطريق إلى الله.

بدأ المحقق يستمع إليه، وقد شعر بأن استنتاجه حيال انتحار يوسف مسَّ وجدان قريبه. تركه يتحدث عن موت يوسف، إلا أن الصمت الذي رافق قدوم المساء، دفع بالقريب إلى السكوت. ولم يوضح للمحقق الطريقة التي كان فيها يساعد يوسف بأن يقتله. هل في موت الرجل عونٌ ما؟ هل بهذا جنَّب باقي أسرته خطر بقائه حيًّا.

في جميع الأحوال، تأكد للمحقق أن مصارحة أخرى ستجري بينهما بعد انتهاء التحقيق.

المشهد الثامن

ما جرى بعد ذلك كان مجرد شكليات؛ استمع المحققون إلى شهادة صاحب السوبر ماركت على زاوية الزقاق، وهو يتعرف إلى صورة المدعوة لين، ويحدد الساعة التي رآها فيها تَعبر أمام محله تتلفَّت من حولها. وكانت عودتها إلى حارة يوسف بالفعل في حدود وقتِ حدوث الجريمة. واستمع إلى شهادة البواب الذي دعاه قريب يوسف بالشاهد الملِك. وقد تركت تلك الكناية في دخيلة المحقق شكًّا في تلقائية هذه الشهادة دون غيرها. إذ قصَّ البواب على المحقق خروج إياس من السهرة، وانتظاره لين في الأسفل. ثم، وربما لتحمل شهادته شيئًا من المصداقية، أخبر المحقق عن غفلة النعاس التي تحدث معه في وقتِ نومه التقليدي مع بداية الليل. ما جعل الأمر متداخلًا قليلًا لديه. لكنه على الرغم من المقدمة التي كان يبحث فيها عن خلاص لضميره، تابع شهادته وأخبر المحقق عن رؤيته لين وإياس يعودان إلى البناء. وأكد له أنه فتح لهما الباب، وصعدا معًا، ثم خلال دقائق عاودا النزول معًا مستعجلين.

كان الرجل مرتبكًا في شهادته، خصوصًا في الجزء الذي تلا

حديثه عن غفلة النُّعاس. أشفق المحقق عليه، إذ لا يعرف الطريقة التي أقنع بها رجاله البوابَ كي يدلي بهذه الأقوال. ودفعت المحقق رغبة عميقة بأن يخفف من أضرار هذا التحقيق الجُرم، ومدفوعًا ببراءة إياس التي رآها في محياه وأقواله. أخذ المحقق على عاتقه التدخل في التحقيق أخيرًا. فنهرَ البواب:

المحقق الرئيسي: لكن، شهادتك تتعارض مع باقي الشهود. لم يتحدث أحد عن عودة إياس، ولم يرَه أحد سواك لا في طريق الكورنيش ولا في الحارة ولا في البناء بعد أن غادره. هل كنتَ نعسانًا إلى هذه الدرجة؟ كيف أُصدقك وأنتَ تتجنَّى على إنسان بريء.

من غير انفعال مبالَغ به، وبعفوية بدت فطرية لدى الرجل. أعقب على حديث المحقق:

البواب: وأنا إنسان بريء. ربما لم أرَ الرجل، ربما اشتبه عليَّ في الليل بسبب النُّعاس.

المحقق الرئيسي: لكنك رأيتَ لين. صحيح؟

قالها المحقق على نحوٍ، وكأنه ينقذ الرجل الذي أرهقه التحقيق. بدا وقد أشرقت أساريره لقرب خلاصه:

البواب: صحيح. صحيح. رأيتُها.

المحقق الرئيسي: متأكد؟!

البواب: نعم. رأيتُ إنسانًا، لا اثنين.

في موقف آخر، كان يمكن للمحقق أن يضحك. بدا له البواب رجلًا مسكينًا يبحث عن أخف الأضرار في موقف من الواضح أنه مجبَر عليه. بالفعل رأى أحدهم يصعد قبل الجريمة بدقائق، وكان

نذير. لكنه استخدم كلمة «إنسان»، بلا تحديد الجنس، إنسانًا؛ توصيف مجرد لكائن حي. وبالنسبة إلى المحقق، فجميعهم، حتى هو نفسه؛ كانوا مجبَرين على أداء المهمة الشاقة. كان مطلوبًا منهم أن يلفُّوا حبل المشنقة، بأيديهم، على رقبة إنسان بريء.

كاد التحقيق أن يُقفل على اتهام لين التي كان فريق الأمن الجنائي يبحث عنها. فيما كانت عينا المحقق تنظران إلى البواب إشفاقًا عليه. وللمصادفة، وهو يلتفت إلى زميليه، وجد مساعده يفتح الموبايل ويهم بإرسال رسالة إلى أحدهم. كان يعرف أن مساعده يتجسس عليه. لكن ما لفت انتباهه هو خلفية الموبايل التي كانت لوحة خط عربي تقول: «وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ». هكذا أغلقت الآية بابًا من أبواب الحقيقة على المحقق. بدا ألا مناص أمامه من تسليم البريء، وإطلاق المتهم، وكانوا جميعًا شهودًا على خسارة الإنسان.

الفصل السادس

العَتبات

العتبة الثالثة

إياس

بقيتُ في الحديقة أجلس على المقعد بمفردي، أفكر بزوجتي التي تركتني، وفي جواري يلعب أطفالٌ بعمر ابني. ومع انكسار ألوان الغروب، وبدء تسرُّب خطوط الليل؛ شعرتُ بأنني بقيت وحدي في الحديقة. لكنني لم أنظر حولي لأتأكد. كنت متعبًا. لم تَعُد لديَّ وجاهة أن أنتبه إلى ما يحيط بي. وأنا أستعيد شهادتي أمام المحققين؛ شعرتُ بالخزي. لا أعرف لماذا صارحتهم بحياتي مع أنهم لم ينتظروا ذلك، ولماذا شرحت لهم الأمر الذي دفع يوسف إلى أن يهبني منزل صلنفة. أيضًا لم أكن مقنعًا، وبدا الأمر كما لو أنني محتال. أنا لم أعرف بأمر البيت إلا منهم، يوسف لم يخبرني. وقد شعر المحققون بأنه اشترى صمتي. لكن علامَ أصمتُ؟

لا أعرف الأمر الذي دفعه إلى تلك الخطوة، وبدا حديثي عن الثقة المتبادَلة بيني وبينه حديثًا مضحكًا بالنسبة إليهم، فهم جاءوا للتحقيق بجريمة قتل. لكن صِدق كلماتي وغفلتي عما يحيط بي، وتأثري بالوفاة منعهم عن الاستخفاف بي.

استغرقت في أفكاري لوقت ليس بمقدوري تقديره، وبدت أحداث اليوم الطويل أحداثًا بعيدة في ذاكرتي. ربما بسبب سرعة بدء التحقيق شعرت بأن الموت نفسه، حدث منذ مدة طويلة حتى قبل سفر صفاء وانفصالها عني. لذلك استغرق عقلي في التفكير بصفاء بدلًا عن الجريمة، وبدلًا عن لين التي خرجتُ أساسًا لأبحث عنها، وأنقذها من الورطة التي أحدثها سلوكها في أذهان المحققين، وارتباك شهادتي أمامهم.

عادت لين تشغل تفكيري، الفتاة التي جمعتها علاقةٌ من نوع ما مع زوجتي السابقة صفاء، أقول «علاقة»، لأنني أظن أن صفاء كانت تراها أقل من صديقة، وإلا لكانت ذكرتها أمامي بالطريقة التي كانت تذكر ريما بها. ربما كان بينهما تواطؤ من نوع ما. لا أعرف. عاد لي مع التفكير بلين، شعورٌ آخر، شعرتُ به أمام المحققين وهم يسألونني عن السبب الذي قد يدفع أحدهم إلى أن يهب رجلًا آخر منزلًا أثريًّا في منطقة سياحية. كثيرًا ما شعرت في داخلي بأن الآخرين يستغفلونني.

لا مناص أمامي من الاعتراف بأن وقوفي أمام المحققين كشف لي جانبًا من حياتي. أشعَرني الموقف بالسوء، وأنا أقول لهم إن زوجتي هي التي تركتني. لكن في النهاية، لم أجد مناصًا من التفكير بلين التي لجأت إليَّ في الصباح من غير أن أسألها عن سبب هروبها، ولو أني حتى قبل أن أفتح لها الباب جاءني ذلك الانطباع بأنني أستقبل إنسانًا هاربًا. كانت أرق من أن أسألها، وأكثر حزنًا من أن أضعها أمام حقيقة ما. لم تبدُ لي كقاتلة. بل على النقيض من ذلك، بدت لي هاربة من

جناية حدثت ضدها، ودفعتها إلى اللجوء إلى إنسان لا تعرفه معرفة مباشرة.

وجدتُ نفسي في وقت يكاد المساء أن يطغى على الغروب، واقفًا في باب حديقة الأندلس، أفكر كليًّا بلين، مهمومًا حيالها ومشغولًا عليها. لا أظن أن لديها مكانًا تلجأ إليه إلا عندي، كما لا أظن أنها ستبقى بمفردها في غرفتها. كان عليَّ أن أعود إلى المحققين. كان يوسف يخصني، وكان يعتبرني بمثابة القدوة له. كما لم أفهم يومًا حاجته الملحة إلى وجود القدوة في حياته. كنت أشعر ببعض المسؤولية تجاهه، وكان يضعني أحيانًا في صعوبات حياته مع ريما التي كنت أنظر إليها نظرتي إلى إنسان يهمني أمره، مدفوعًا بمحبة نقية لها. لكن بقيتْ حياتهما تسير بهوس المقارنة معي وصفاء. حتى إن يوسف كان ينظر إلى صفاء بشيء من الإعجاب. كانت المرأة المستقلة تعجبه، أعرف هذا، وأعرف أن اتكالية ريما المفرطة، هي التي دفعته إلى الإعجاب بنموذج آخر. عين الإنسان تبقى فارغة.

كانت صفاء تصدر عن نفسها صورة المرأة المستقلة حتى بعواطفها عن شريكها العاطفي. أشكُّ حيال ذلك. لكن الآخرين، أقصد مَن هم غيري، وجدوا في انفصالها عني وتركها لي، تأكيدًا على استقلالها بعواطفها. كانت صفاء مسكونة بشعور بالذنب نحوي، لا أعرف مصدره. لكن عندما تركتني تأكد لي أنها لم تَعُد قادرة على احتمال قُربنا. لم تكن قادرة على خداعي، كانت تحبني، أو ارتباطها بي ارتباطٌ قوي. وهي لم تكن تستغفلني، بقدرِ ما كانت متأكدة أني سأغفر لها. لكن الحياة التي أردتها ليست في مجازفة العيش وسط

تقلبات العلاقات. الحياة التي أردتها، ولم أعشها إلا بمفردي، كانت الحياة الهادئة. والمسألة ليست دائمًا في غفران الآخرين لنا؛ بل في غفراننا لأنفسنا.

جعلتني ذكرى صفاء أحسم مساري؛ سأعود إلى المنزل، أرتاح قليلًا، ثم سأعود إلى المحققين من جديد. فأنا غادرتهم منذ وقت ليس بمقدوري معرفته. كنت هائمًا طوال الوقت. صعدتُ الأدراج، وأنا أفكر بالموت وأفكر بلين، وأفكر بعلاقتي مع صفاء، وأفكر بابني. وكل ما أردته أن أوقف عقلي عن العمل، وأن أغيب عن نفسي. أيضًا كنت أريد أن أسأل لين، إن رأيتها؛ لماذا لجأت إليَّ...؟

وصلتُ البناء الذي أسكن دوره الأخير. وأنا على الأدراج أضاء داخلي بذكرى ابني؛ شعرتُ بأنني أريده معي، وإلى جواري، وبأنني أخطأت بأن تركته يبتعد عني برفقة والدته. لا أقول إنني شعرت مجدَّدًا بالحنين إليها وإلى أيامنا معًا. لكن وخزتني الذكرى كلها، وشعرت، لا أستطيع نكران ذلك؛ بأنني فقدت فرصتي في أن أصنع عائلة. وأقصى ما كنت أنتظره أن تعود لين، أن تعود وتلجأ عندي، مهما كان الأمر الذي تهرب منه، كنت على استعداد للوقوف معها.

فتحتُ الباب بمفتاحي، ودخلتُ الردهة التي تنتهي في الصالون. وجدتُ ثياب صفاء مرمية على الأريكة في صدارة الصالون. بالطريقة ذاتها التي اعتادت صفاء أن تفعلها. غامت الذكرى في عقلي، وتداخل عليَّ ما يمكن أن يكون خيالًا مع الواقع الذي أعيشه. تجاهلتُ ما استطعت مرأى ثياب صفاء المرمية بفوضى على الأريكة. لكنني لم أغفل عن أن مرأى الثياب التي بدت، وكأنما منتزَعة عن صاحبتها قد

أثارني، بقدر ما أثارتني الذكرى. تجاوزت عتبة الصالون إلى المطبخ، ووقعتُ هناك على مشهد آخر قادم من حياتي البعيدة؛ رأيتُ الغداء جاهزًا على المائدة، وكأنما أعدَّتهُ صفاء، وبقيتْ تنتظرني. حتى إن أبخرةً هادئة كانت تتصاعد من الأواني. وفي لحظة لُمت نفسي، على البرود الذي حطَّم صِلات صفاء معي. لقد قسوت عليها. ولم يكن من حقي أن أفرض كآبتي عليها. ولم يكن من حقي أن أتركها تغادر بدون أن أفعل شيئًا يمنعها عن الرحيل. كان يجب، على الأقل، أن أحاول.

شعرتُ للحظة بأن حياتي تعود، وبأنني لم أفقد شيئًا منها البتة، شعرتُ بأن الحياة لا تزال أمامي، وبمقدوري، وفي متناولي. تجاوزتُ عتبة المطبخ، ووصلني في هدوءِ المساء من داخل الحمَّام الذي تُرك بابه مشقوقًا، غناءٌ أشبه بالترنيمة التي تسبق النوم، وتنادي على النوم. رأيتُ من شقِّ الباب العروقَ اللحمية التي تُحْدثها تشققات الجلد، تبدأ أسفل الظهر وتضيع في الفخذين، فيما نقط الماء تسير فوقها وعلى هَدْيِها.

لم أحتَج إلى وقت، لأعرف أن لين تستحم في منزلي.

لين

وجدتُ نفسي أحلُّ مكان صفاء في منزلها، وقد مضى ذلك الزمن الذي كنت أستمع إلى شكواها من زواجها، وأنا أقسر ذاتي عن التفكير بأن زواجًا مثل زواجها هو كل ما أردته. وكان إياس يبدو لي رجلًا هادئًا، حريصًا على منزله، يُحب العائلة بلا تكلف أو مبالغة.

وهو من الرجال الذين يتفانون لأجل سعادة أُسرهم. كان يترك لدى صفاء انطباعًا بأنه رجلٌ كبير في السن. كئيب. لكن الحقيقة أنها كانت تضيقُ بالزواج. وأخذت تضيق بالأمومة التي اعتقدتْ أنها ستصالحها مع الزواج. وبدلًا عن أن يصالحها ابنها مع حياتها؛ صارت ترفض زواجها.

وأنا في منزلها أرتدي ثيابها وأجلس على الأريكة التي كانت تجلس عليها عندما كنت أستمع إلى شكواها، وأستعيد بعض أحاديثها عن رتابة زوجها، وعن تفانيه الذي يُشعرها بالنقص. أدركت أن صفاء كانت حبيسة ألمٍ أنها لن تقوى على أن تكون مثله. لن تقوى على أن تذيب ذاتها داخَل أسرتها. وكنت أقول لها ما أسمعه عن أنه في الزواج غالبًا ما يكون أحد الزوجين أكثر تفانيًا من الآخر. وليس شرطًا على المرأة أن تكون هي المتفانية. ليس شرطًا على جيلنا أن يكرر سيرة أمهاتنا... فالحياة، كنت أقول لها، تغيَّرت. وكنت أحدثها عن تغيُّر دور المرأة الاقتصادي، الأمر الذي غَيَّر بعضًا من العلاقات التي تجمع الرجال بالنساء. لكنها كانت تنظر إليَّ نظرة مستاءة بسبب فداحة جهلي. وكنت بالفعل، لا أعي العمق الذي كانت تقصده. وقد أصرت على أن تصدِّر لي شعورًا مقيتًا بأني جاهلة، ومعرفتي بالحياة معرفة نظرية أخذتها من كتب الجامعة، ومن أحاديث الآخرين. لكنني اليوم أشكر صفاء، لأنها نبهتني إلى فقر تجربتي. وليس مصادفةً أن العلاقات التي دخلتُها كانت جميعها تدور في محيط صفاء. في جزء مني، كنت أريد أن أكسر الصورة التي راكمتها في داخلي عن نفسي بسببها.

وأنا جالسة على الأريكة أرتدي ثيابها، وقد أعددتُ الطعام لزوجها السابق، الذي أحب أن أراه لا يزال زوجها. وأنا أرتدي ثوبها، الأمر الذي كانت لتمقته، شعرتُ بأن الحياة قد أنصفتني في النهاية. وبأني على مقربة من إغلاق عالمي القديم. فتن عقلي التفكير بأن أكون مع إياس. حررني موت يوسف الذي أشعر به على الرغم من الحزن والتعب اللذين ألمَّا بي. إلا أنني أراه موتًا ملهمًا وبعيدًا. وقد طوى الموتُ وقبله الخديعة حكايتي مع يوسف طَيًّا نهائيًّا. لا أستطيع أن أنكر بأن هذه الأفكار كلها قد أثارتني. وأكثر ما أردته هو عودة إياس، حتى لو لم يحدث بيننا شيء أكثر من الملامسة. فأنا أريدها. حتى إنني أريد أقلَّ من هذا؛ يكفيني أن يكون معي في المنزل نفسه، أن تختلط أنفاسنا معًا ونحن بمفردنا في منزل صفاء. شعرت بأن الفرصة جاءت كي أنتقم من ذكرى يوسف بسبب خديعة سفره، وبدا الموت حاجزًا واهيًا لم أصدق وقوعه. كما جاءت الفرصة كي أنتقم من ذكرى صفاء التي لم تكن تأبه بمشاعري. ولم يكن يوجد أكثر مثالية من إياس، الغافل، كي أُجري انتقامي بواسطته. أردت انتقامًا مسالمًا، أردته أمام نفسي ولأجلها فقط.

أخذتْ تلك الأفكار تسلب عقلي. ربما تحت تأثير الصدمة. لست متأكدة. أردتُ أن أهرب من سكرة أكثر مضاءً، وهي غفلة الموت وانتزاعه الرجل الذي جربتُ معه شعورًا قلَّما تجربه النساء حبيسات بيوتهن؛ شعور أن أكون محظية، أن أكون خليلة. كنت أهرب بيوسف ومعه، من المجتمع. لكن لكل حكاية نهاية، ولا أخالُ نهاية تصيب الحب أكثر إلهامًا من موت أحد المحبين.

بدأت أنزع عني ثيابي، أقصد ثياب صفاء، وأنا جالسة في المكان الذي اعتادت الجلوس فيه. نهضتُ وأسدلت الستارة التي تفصلني عن الخارج. نزعتُ البلوزة ورميت بها على الأريكة، ومن ثم نزعتُ البنطال ورميته على مسافة عن البلوزة. وكم كنت أودُّ أن أرمي بذكرى يوسف مثلما أرمي قطع الثياب بعيدًا عني. وأنا في منزل صفاء، أخذت أستعيد موقف الصباح، وإياس يترك المفتاح على مقربة مني؛ أثارتني رقته وارتباكه.

نزعتُ كل ما عليَّ من ثياب، وعاودت الجلوس في مكان صفاء، أفكر بإياس، مثارةً، ولا أجد ما يدفعني إلى نكران شعوري الحقيقي ذاك؛ الشعور الذي لا أعرف ما جعله ملتهبًا في داخلي بذلك القدر. ولو أنني كنت سأكتفي بأن يلامسني ولو عرضًا وهو يقف إلى جواري في المطبخ، أو عند دخوله عبر الردهة، أو أقلَّ من ذلك؛ كان يكفيني أن يكون معي في المنزل نفسه، بمفردنا، تختلط أنفاسنا في الحيز الضيق المغلق ذاته. كنت أريد ذلك، عارية على الأريكة التي تقابل الردهة، أطرد ذكرى خديعة يوسف عني، وأطرد تصورات صفاء التي لا أعرف لماذا كانت كثيرة التحدث عن الندم؛ أكانت تقصد الانفصال الذي لم تكن تجد بدًّا منه. لا أعرف ما الذي جعلها تبدو شقية من العيش مع إياس إلى ذلك الحد. وما كانت تدعوه وصاية إياس عليها، كنت أرى فيه صفة قليلة الوجود، كان إياس يضع نفسه مكان الآخرين، يفكر بالنيابة عنهم، يفكر بتجنيبهم المواقف التي قد يضطرون إلى مواجهتها بمفردهم؛ مرآه وهو يعدُّ لي الإفطار، وهو يترك لي المفتاح في الصباح؛ جعلتني أشعر بأنني أريد أن أضمه،

لرقته في أول الأمر، ثم لوحدته التي لم تكن تُخفي نفسها. الوحدة التي بدا زمنها طويلًا عليه.

أخذتُ أفكر مثارة في كل هذه التفاصيل. خجلت من نفسي. شعرت بحاجتي إلى أن أغسل نفسي. توجهت إلى الحمَّام وأنا أطمح أن يغسل الماء الدافئ بعضًا من مرارة الحزن، وبعضًا من عجز الإثارة التي لا أعرف كيف استحكمت بي في وقت مباغت كهذا.

وجدتُ نفسي وأنا تحت الدُّش الدافئ، الماء يقطر على جسدي، واللذة تتقطر منه، أفكر بإياس وأتضوع به. ولم يكن في دخيلتي سواه.

الفصل السابع
المشاهد

المشهد التاسع

مع حلول المساء لم يَعُد لدى المحققين متسع من الوقت. طلبوا إفادة ريما. المسألة شكلية. وكان سيناريو الانتقام العاطفي الذي صنعه المحققون الأقرب للإعلان عن الجريمة.

دخلت ريما المطبخ، تُساندها والدتها ناديا. ساعدتها على الجلوس، وأشار لها مساعد المحقق بالخروج. وقد خرجت، وبقيت ريما ساهمة في أحد أركان المطبخ، ليس بالإمكان تخمين ما تراه، إذ بدا أن عينيها تجتازان المكان وتجولان في عالم آخر، لا يزال يوسف حيًّا فيه. كان صعبًا على المحققين أن يقطعوا شرودها وحزنها. كان شاقًّا عليهم أن يبدأوا أسئلتهم التي قد تصدم ريما، بعد أن قرروا سيناريو الجريمة بناءً على سلوك لين وإياس الغامض، وعلى ما جمع لين بيوسف قبل الوفاة، وصفاء بيوسف قبل أن تترك صفاء إياس. احتاج المحقق شجاعةً كي يبدأ أسئلته، وعندما بدأ الحديث فوجئ بكلمةِ «ابنتي» تخرج إلى شفتيه بلا ترتيب منه، وكأنما تغلبت الشفقة على باقي أحاسيسه:

المحقق الرئيسي: ابنتي. اعذرينا لأننا نحتاج إلى إفادتكِ في حادثة

القتل. أنتِ أقرب الأشخاص إلى المرحوم. وقد تعرفين أمورًا لا يعرفها غيرك. أهمية المرحوم وصِلاته جعلت موته قضية رأي عام. الجميع ينتظر نتائج تحقيقنا. وإلا لكُنا تأخرنا في طلب إفادتكِ ليومين أو ثلاثة. لكن نحن مضطرون إلى أن نعلن عن القاتل. أرجو منكِ أن تساعدينا.

ألزمَ المحقق نفسه الصمتَ لعل ريما تعلِّق على ما سمعته. لكنها استمرت صامتة. فوجد نفسه يكمل الحديث:

المحقق الرئيسي: لا أخفيك، إنني أحتاج إلى رأيكِ وموافقتك. وقد توصلنا خلال تحقيقاتنا التي شملت النهار كاملًا، إلى جانب اطلاعنا على ملفات عديدة في لابتوب المرحوم، إلى احتمال أن يكون القاتل شخصًا قريبًا منكم، من دائرتكم الضيقة.

بقي منتظرًا تعقيبًا منها، كذلك كان مساعدوه. لم يعرف ما الذي يمكن أن يضيفه إلى مقدمته، ثم وجد نفسه، وهو يقدم كأس الماء لريما، يقول خجلًا:

المحقق الرئيسي: وجدنا أن لين هي القاتلة، ولإياس علاقة بهذا القتل.

شعر المحقق بأن انتباهًا عابرًا شاغَل شرودها مع ذكر إياس. لكن كانت لا تزال في عالم ما زال يوسف حيًّا فيه. وقد دفع ثبات شرودها بالمحقق إلى أن يعيد صياغة عباراته:

المحقق الرئيسي: لسنا متأكدين من أن إياس شريك في القتل. لكننا نعتقد أنه يخفي أمرًا مرتبطًا بالمدعوة لين. وتحرياتنا تقول إنهما الآن في منزله. وسوف نواجهه بما عرفناه. أقصد العلاقة التي جمعت

لين بيوسف. وقبلها، اعذريني يا ابنتي. لكن هذا عملي وأنا مضطر على أدائه. أقصد، العلاقة التي جمعت المدعوة صفاء مع المرحوم زوجك. (صمت لحظات، وبدا صمته جزءًا من انفعالات الكلام) ألا تجدين في خيانات كهذه دافعًا محتملًا للقتل؟ ألا تجدين أن شخصًا مشهودًا له بأخلاقياته العالية، مثل إياس، يمكن أن يرى في البيت الذي تركه له زوجكِ نوعًا من الإهانة؟

بدا أنه يتساءل أمام نفسه، وتابع:

المحقق الرئيسي: يمكن لأحدنا أن يقول إن المرحوم حاول أن يشتري شرف صديقه.

لم يبدُ أن المحقق يقول كلمات جديدة على ريما. لكن بدأت ملامحها تتحرك، وكان الحزن قد رمى عليها شيئًا من الصلابة المتبلدة.

المحقق الرئيسي: لا نزال نتساءل أيهما دفع الآخر لارتكاب جريمة القتل. المؤكد أن لين هي التي عادت إلى منزلكم، هذا ما أكده زملاء المرحوم والبواب وصاحب السوبر ماركت. عودتها أمرٌ حدث. وقد أظهر سجل مكالمات يوسف أن لين آخر من اتصل به. لكن أليس واردًا أن يكون إياس هو من دفع بها إلى ارتكاب هذه الجريمة؟ برأيك، هل يمكن لشعور لين بأن المرحوم اختاركِ في النهاية، ليتابع حياته معكِ في بلد آخر أن يكون كافيًا لدفعها إلى قتله؟ قد يكون خدعها ووعدها بالزواج أو بالحب الأبدي.

بعد ارتباك لم يقوَ على إخفائه، تحدَّث إليها بنوع من الرجاء:

المحقق الرئيسي: يا ابنتي، أرجوكِ أن تساعدينا. نحتاج إلى إفادتك. نحن مضطرون لأن نعلن القاتل الليلة. هواتفنا، كما ترين، لا تهدأ. يريدون قاتلًا قبلَ انقضاء ٢٤ ساعة على القتل. يا ابنتي، حسب معرفتكِ بيوسف وبأصدقائه هؤلاء: هل ترين أن ما وصلنا إليه بحكم الأدلة الذهنية، وبعض الأدلة الجنائية متوافق مع الواقع؟ أم هو افتراض ذهني؟ (بعد صمت) إذن أنا مضطر ألا أخفي عنك؛ هناك من يشير إلى أن صِلات يوسف مع عدد من المتنفذين في اللاذقية ودمشق ممن لديهم ولاءات لدول مختلفة، هو ما أودى به. وكأنما قد تورط - وأرجو أن تدَعي الأمر بيننا - في تعارض ما ضمن حسابات الولاء المعقدة. وهذا أمر أرى لصالحكِ ألا يؤكده التحقيق. خاصة ألا دليل معنا يؤكده. لكن إن وافقتِنا، تستطيعين في الغد أن تسافري. (بعد صمت) ما أحتاجه منكِ بسيط، أيهما دفع الآخر كي يقتل يوسف؛ لين أم إياس. لو ترتبين لي أولويات القتل كما ترينها. رتبيهما لي، ولننتهِ الآن.

بدأ المحقق الرئيسي يفقد صبره وحيلته معها. وانتهى ليقول:

المحقق الرئيسي: المسألة بسيطة.

تنهدت ريما، وقد أدركت ألا مناص أمامها من أن تتحدث، وقد دفعها شيءٌ من إلهام الفقد والحزن إلى أن تكشف كشفها الحقيقي:

ريما: حضرة المحقق، لا حاجة لتُقحموا الناس في موت زوجي. وإن كنتم تبحثون عن قاتل. فها أنا. أنا القاتلة. (صمتت لحظات) ما تخبرني إياه ليس حقيقيًّا. على الرغم من الحبكة التي تبدو عقلانية.

لكن الحقيقة، لم يَعُد يوسف يريد أن يعيش معي، قرأتُ هذا بصراحة في محادثته الأخيرة مع صفاء. وأنا نفسي، لم أعُد أحتمل إساءاته لي. أخيرًا، قتلتُه، أنا من قتلت يوسف. اكتشفت أني أمقته أكثر من قدرتي على أن أتركه يعيش... يوسف خرب حياتي... خرب عليَّ الحياة كلها.

بدا أنها ممسوسة. وسرعان ما عاد المحقق إلى فرضياته. وقد قهرها أنه تجاوز اعترافها:

المحقق الرئيسي: في مهنتنا نرى الكثير. كل شيء وارد. لكن المهم هو الدافع. ولين مع إياس هما الوحيدان اللذان يملكان دافع القتل. في النهاية يوسف اختارك. وكنتما ستسافران. ربما من جراء الصدمة تبالغين في لوم نفسك. يا ابنتي، يوسف مات، لأن هذا قدره؛ تقبَّلي موته.

ريما: لكن إياس لا يملك دافعًا للقتل. هل تحدثتم إليه؟ ألم تروا براءته. إنه لا يعرف شيئًا عن علاقة صفاء مع زوجي. وأرجو ألا يعرف. أرجو ألا يصل بكم الأمر إلى أن تُشْهروا ذلك أمام إياس. إنه لا يستحق هذه القسوة كلها.

المحقق الرئيسي: هذا عملنا.

ريما: عملكم كَشْف القاتل. وها هو أمامكم. لماذا تجاهلت اعترافي؟ (منفعلة) ما الدور الذي تلعبه؟ ولصالح من تشتغل؟ ثم، اسألوا خالي نذير. كان حاضرًا. وحاول أن يحسم بنفسه الأمر بيني وبين يوسف. يمكن أن تزعموا أن يوسف مات منتحرًا. لكن هذا ليس حقيقيًّا. أنا قتلته. وفي هذا لا أظن أن أحدًا يلومني. لم أُرِد منه سوى الطفل. أنا

أنتظر مولودًا منه. وأخيرًا، صار زواجنا مثاليًّا، ينتهي بأن يقتل أحد الأزواج الآخر. وأنا قتلته. اسألوا خالي نذير.

المحقق الرئيسي: لكن لم يتحدث أحد عن حملك. حتى، اعذريني، حتى والدتك.

ريما: أمي لم تعرف. لم أخبرها. ويوسف لم يكن يعرف. أنا في أسبوعي السادس من الحمل. ليس لديَّ تفسير. حملتُ مدفوعةً بطاقة النجاة والخروج من البلد. حتى الطبيب فوجئ بحملي. أنا لم أفاجأ؛ كل ما أردته أن أنجو من هذا المكان. أردت الطفل. لكنني لم أعُد أريد يوسف. أردت قتله. خالي كان معي. ولم يُتح لي أن أقتله بيدي. هو من حسم المسألة بيننا. لكن أنا القاتلة. لا يوجد من ألومه. خالي أكمل دورًا كنت قد بدأته وعزمت عليه.

أخيرًا عرفت الدموع طريقها إلى ريما التي انهارت أمام المحققين انهيارًا جعل المحقق الرئيسي ينادي على ناديا التي دفعت الباب ودخلت، وكأنما كانت تنتظر وراء الباب.

كان الليل يتقدم، ولم يقع المحقق على إفادة تؤكد له القاتل. ولو أن الصورة بدأت تتضح لديه؛ بدا أن نذير هو القاتل. وقد دفع بيوسف، بعد شجار ربما يكون عابرًا بين يوسف وريما، على خلفية رؤيتها اعترافه لصفاء بأنه لا يحتمل السفر معها. لكن نذير استغل الشجار العائلي كي ينجز مهمته، حتى إنه لم يضطر إلى استخدام سلاحه.

بدأ يشقُّ على المحقق أن يلف حبل المشنقة حول رقبة بريئة، هي رقبة لين. لكن الاتصالات لا ترحمه. وقد تركه نذير يواجه بمفرده

صعوبة إقرار القتل. ريما منهارة. أصابت وفاة زوجها عقلها. إنها تهذي. لا يُعتد بإفادتها. تعتقد نفسها حاملًا. تعتقد نفسها القاتلة. حتى أخذت تصرخ وتهذي وهي بين يدي والدتها بأنها هي، بمفردها، من قتلت زوجها. وأخذت في سكرات الحزن وصدمةِ النهاية، تسأل عن لين كي تشكرها للعزاء الذي منحته ليوسف بعد غياب صفاء التي كانت صداقتها معها من العمق حدًّا تجاوزت خيانتها لها. مجددًا رآها المحقق، حكاية عن الصداقة بقدر ما هي حكاية عن الحب. أربك صياح ريما وحديثها الحاضرين، أربك العساكر الذين وقفوا في باب الشقة. لكن من عَبَّر للمحقق الرئيسي عن صعوبة الموقف هو المحقق الشاب:

المحقق الشاب: سيدي. أرجوك دعنا ننتهي من المسألة. كيفما كان. سيدي، لا يمكن أن ينطق كلماتنا سوى إنسان أخرس. ثم لا يبدو أن هناك جريمة؛ جميعهم متآلفون مع موته... حتى ليبدو لي، أن جميعهم قتلة. نحن في مسرحية جميع أبطالها قتلة.

كانوا في حيرة. وجاء كلام الشاب الذي وجد الفرصة ليعرض فرضياته، مستغلًّا ارتباك نقاء الحبكة الذي سببه انهيار ريما وكشفها سيناريو الجريمة. وقد أضاءت فكرة «الإنسان الأخرس» رأس مساعد المحقق الذي قاطع الشاب:

مساعد المحقق: أخيرًا وجدتُ لنا حلًّا. فكرة عبقرية. لدينا شاهد أخرس، وبقوة العدالة نستطيع أن نجعله ينطق.

هال المحقق ما أشار إليه زميله، وكان يقصد نهاد الذي كثيرًا ما يخونه جسده. بدت بالفعل فكرة عبقرية، لا يمكن أن تصدر سوى

عن الشيطان. وهو هنا، نطق بلسانِ الملاك الصغير بين العتاة. أخيرًا هتف المحقق:

المحقق الرئيسي: إنها بشارة النهاية؛ مَلاكنا أخرج لنا الشيطان. يا لها من عبقرية.

المشهد العاشر

وجدَ الأب العاجز نفسه شاهدًا على قتلة ابنه الذين أراد لهم آخرون أن يكونوا هم القتلة. وأخذ الرجل الذي ساندَه المحقق الشاب، وأحد العساكر كي يصل إلى ركن التحقيق في المطبخ، حيث جلس، ووجهه خالٍ من التعبير؛ ينظر من حوله وليس لديه طاقة على استيعاب ما جرى منذ أخذه يوسف ليلة البارحة من هدأة البطء، وتركه بين هؤلاء الغرباء. حتى إياس لم يبقَ إلى جواره. وتأكد للكهل من انهيار ريما أن يوسف ذهب بمفرده إلى مكان بعيد.

كان وعي الرجل ينازع، فتختلط عليه الأشياء والذكريات اختلاطًا بهيمًا غامضًا، ولم يكن بمقدوره فصل حدث عن الآخر في وعيه. ليس بمقدوره أن يسبك حكاية مضبوطة البداية والنهاية. إلى جانب أن التعبير كان يخونه عما يودُّ قوله أو عما يوافق ما أراد قوله. وكان هذا الرجل الأخرس هو الشاهد الملِك. أحضروا من أجله أريكة مفردة مريحة من الصالون. ووضعوه أمام المحقق الذي اقترح عليه سيناريو القتل:

المحقق الرئيسي: وصلنا إلى سيناريو الجريمة باستنتاجاتنا الخاصة،

وبقراءتنا لسلوك الذين حضروا عشاء البارحة. وما نحتاجه منك أمرٌ بسيط، فقط أن تؤكد روايتنا.

كان والد يوسف يفعل ما بوسعه كي يفهم ما يحيط به. وما إن توقف المحقق عن الكلام حتى أومأ له سريعًا، بالموافقة. مع أنه لم يفهم ما قيل. لكنه شعر بأن عليه أن يساعد العدالة، وقد أشرقت أسارير المحققين للاستجابة السريعة التي لم يكونوا يرجون أكثر منها.

المحقق الرئيسي: ابنك يوسف الذي نأسف لرحيله المبكر، مات مقتولًا. قتلته عشيقته بمساعدة صديقه. وفي دوافع القتل؛ ابنك كان على علاقة مع زوجة صديقه إياس، وانفصلت السيدة عن زوجها من جراء هذه الخيانة الصعبة. ثم ما الذي فعله ابنك؟...

لم يكن ينتظر جوابًا، تابع حديثه الذي أراده حديثًا دراميًّا:

المحقق الرئيسي: أهدى صديقه منزلًا رخيصًا قياسًا بفقد العائلة؛ إنها إهانة لم يستطع إياس تقبُّلها. أما لين التي تجمعها معرفةٌ بإياس، ربما صداقة أقوى مما نتصور، ويمكن أن تجمعها علاقة غرامية. (استرسل) هما غائبان. وفريقنا سيُداهم منزل إياس، حيث تشير تحرياتنا إلى وجودهما معًا هناك. لكن ما يشغلنا الآن، أن توافق على روايتنا. في الأحوال جميعها، (بنبرة اتهامية) ابنك وعد عشيقته بالزواج منها. ثم قرر أن يسافر مع زوجته، ويبدأ حياةً جديدة. إنه استخفاف بمشاعر العشيقة التي وجدت من يساندها كي تنتقم. صحيح أنها قاتلة. لكنني لا أخفيك، أتفهَّم دوافعها. لا يمكن للإنسان المستهتر بمشاعر الآخرين أن يمضي إلى حياته بلا عقوبة. أحيانًا

تكون الجريمة استجابة لغياب العدالة. (بعد صمت) منذ الظهيرة، فعلنا ما في وسعنا لترتيب هذا السيناريو. وإبعاد أي تشويش عن جوهر التحقيق. هل توافقنا عليه؟

أومأ نهاد برأسه. وقد شعر بأن الرجل الذي أمامه أعطاه الكثير من وقته، وبدا مهتمًّا بأن يُوصِّل له أمرًا مرتبطًا بالوفاة. مرتبطًا بوجهة نظر والد يوسف بالحادثة. وبدا الرجل الذي يسرد حكايةً أمامه مهتمًّا بمعرفة رأيه بصورة حاسمة. سرعان ما أومأ نهاد برأسه موافقًا بشدة على كلام المحققين. أما بالنسبة إلى مساعد المحقق فقد كان سعيدًا أيَّما سعادة بهذا الشاهد الذي يُلقِّن ما أرادوا قوله بكل سهولة. كان يخطف نظرة إلى الملاك البائس إلى جواره، متنبئًا بمستقبل عظيم له. لكن ملاك الحكاية البائس كان متألمًا، وقد وجد نفسه أحد مؤلفي مسرحية إعدام العدالة.

المحقق الرئيسي: إذن بعد أن وافقتنا على الدوافع، سأسرد لك تفاصيل القتل. لقد رأيتَ أنت، ولم يروِ لك أحد؛ كيف أن إياس ولين كانا قريبين من بعضهما طوال فترة العشاء. الجميع رأى هذا. وخرجا معًا. ثم تناقشا في طريق عودتهما بالإهانات التي زرعها يوسف في قلبيهما، قبل أن يغادر ويبدأ حياة جديدة، تاركًا لهما أوهام الصداقة وخداع الحب. التي لم تكن كما يراها كلاهما، إلا خديعة وكذبًا من قِبل المرحوم ابنك. في مسافة ما، قررت لين أن تنتقم من يوسف. عادت إلى منزله، ورآها كثيرون في طريق عودتها. اتصلت بيوسف، وطلبت رؤيته كي تودعه، لا في الشارع،

وإنما على السطح الذي يطل على ليل اللاذقية الرومانسي. وهناك، بدا أنها استغلت حالته، فهو ثملٌ. ثم غافلته، ودفعت به إلى فضاء الليل. وأفجعتنا جميعًا. ثم نزلت هاربة، وعادت للاختباء لدى إياس.

أومأ الرجل برأسه، وهو لا يعرف إن كان عليه القيام بأمر آخر. ولا يعرف كيف يستجيب لحركات هؤلاء الرجال الذين كلما تحدثوا إليه أكثر، انفرجت أساريرهم، وكأنما يقتربون من هدفهم.

مساعد المحقق: (نشوانَ) إذن أنتَ توافقنا؟ لين القاتلة، وإياس متواطئ معها.

أومأ نهاد ببعض من الحماسة. أضاء لها وجه المحقق:

المحقق الرئيسي: انتهينا أخيرًا...

توجه إلى نهاد بالقول:

المحقق الرئيسي: شكرًا على مساعدتكم العدالة. ونسأل الله أن يلهمك الصبر على الرحيل المبكر للمرحوم.

ثم نهضوا فجأة ومعًا، وبدا أنهم أكثر خفة. باستثناء المحقق الشاب الذي بدا مستاءً بصورة كبيرة. بقي نهاد ينتظر عودة اهتمامهم به، ينتظر أن يتابعوا حواراتهم معه. وحرصهم على سماعه. أخذ صفيره يعلو. بدا مستاء وهو ينظر في فراغ المطبخ من حوله، وانسحاب العساكر من المنزل الذي عاد فارغًا يصفر بالحزن والموت، فيما كانت تفاصيل الجريمة تُعلَن في الخارج وعلى الملأ.

بعد وقت انتبه نذير لحال نهاد متروكًا داخل المطبخ، يصفر

مع تسارع أنفاسه؛ ساعده على النهوض، أخذه إلى الغرفة المُعدَّة للأولاد. ساعده كي يتمدد على السرير، وهو يتجاهل صفير الرجل وتورد خديه، وأحزانه المبهمة. وفي الخارج، أعتمت العدالة، وأشرع ليلُ اللاذقية أبوابه جميعها.

الفصل الثامن

العرض

١

كان إياس ينظرُ إلى نفسه النظرة ذاتها التي صدَّرها إليه الآخرون؛ على أنه تحفة في الفترين، يراها المتفرجون من وراء الزجاج، ويقتصر دورها على أن تكون تحفة للرؤية من بعيد. التحفة لا تقوى على التفكير بكسر الزجاج الذي يفصلها عما يحيط بها، فهي لا تقوى على سِجال الواقع. وليس بمقدور أحد مساعدتها على الخروج من وراء الزجاج إلى الحياة نفسها. التحفة تُبْصِر، ولكنها لا ترى. التحفة تعرف، ولكنها لا تفعل. وليس يحضر إلى خاطر التحفة إمكانية أن يدفع بها أحدهم إلى العرض اليومي. ليس يحضر إلى خاطر التحفة أن يرمي أحدهم بالفترين كلها إلى الأرض الصلبة الدَّنِسة.

عدا عن كون إياس لم يعترض على الانفصال؛ بدا أنه هو من خلع صفاء عنه. وكأنه أراد العودة إلى الفترين، ومواصلة هوسه بمراقبة الحياة التي كانت تجري من حوله، واستمر يفعل ذلك. كأنه لم يكن في وسط العيش، وإنما كان يعيش بموازاة حياة الآخرين؛ ينظر إليهم، يراقبهم، يمتلئ بهم، ولكنه لا يقترب. ولا يفكر في أن يلمسهم، أو لم يَعُد بمقدوره الاقتراب منهم. ولم يكن يتوقف عن

التكرار أمام ريما بأن البشر خطيرون؛ عندما كانوا يسمعون أحاديث يوسف والحكايات التي تجري معه في محاكم اللاذقية التي ترزح تحت ثقل المافيا.

ظن إياس نفسه في مأمن من الشرور، ما دام قد قصر عالمه إلى أبسط ما استطاع. وكاد تواصله أن يقتصر مع ابنه عبر وسائل التواصل الاجتماعي المختلفة، ومع والدته بين حين وآخر، حيث يزورها في المشروع الأول وأحيانًا يرى حاجات نهاد، إن طلب منه يوسف ذلك. وحتى لقاءاته مع يوسف، أصبحت متباعدة، وأغلبها كان يحدث في منزل يوسف وبحضور ريما. وكانت هذه اقتراحات ريما كي تُشعر صديق العائلة الدافئ بدفء البيوت. لكن أخذ الحنين لصفاء ونور، يشق على إياس مرة بعد مرة، حتى عكف عن الحديث عن عائلته التي انفصلت عنه. واستمر في زياراته المتباعدة إلى منزل يوسف كي يرى ريما، كي يطمئن عليها، وكي يتأكد من صديقه يوسف وأحاديثه؛ من أن الآخرين ما زالوا خطيرين. ولم يأتِ الوقت بعدُ، كي يكسر الفترين ويخرج منها.

لكن الخارج أخيرًا، اقتحم عليه حيث يعيش. وعندما كان إياس مع لين في منزله، منشغلين بنفسيهما عما يحدث في الخارج المشتعل ضدهما ما إن أعلن المحققون الجُناةَ؛ عشيقة المغدور وصديقه. وقد وجد الناس مسوغات لتصديق رواية فريق التحقيق، لاعنين الزمان الذي وصلوا إليه، الذي لم يَعُد أحد يستغرب فيه شيئًا. استبدلت الصفحات التي تُقاد من الأمن، وتقود بدورها الرأي العام، برواية الناس الأولى عن مقتل المحامي الذي خذلته الولاءات، روايةً أخرى

عن العشيقة الغاضبة والصديق المخدوع. ومن السهولة أن يُقاد الناس وبسرعة بين الرأي ونقيضه. وكان يمكن أن تمضي حكاية مقتل المحامي من غير الدراما التي افتعلها فريق التحقيق. لكن المافيا لم تشَأ تضييع الفرصة لتضييق الفارق بينها وبين الدولة. وفي هذا الشقاق الأشبه بالبرزخ سقط الكثير من الأبرياء، وسقطت بلادٌ بحالها.

من جراء استكانته في الفترين، جاءته الحياة بهذه النكبة التي قد تدفع به إلى التفكير بأن ينقذ نفسه أخيرًا. وكان إياس قد فكر أن يسعى لأن ينقذ نفسه من نمط عيشه، وهو يرى الماء ينساب فوق عروقِ جلد لين، فكر بذلك، وفكر بحاجته إلى قصة عاطفية مع إحداهن. وأدرك وهو يحاول جهده ألا يشيح بنظره عن لين التي انتبهت إليه واقفًا وراءها، يحاول كسر طوق الخجل، ويحاول جهده أن يستجيب لنداء بريٍّ في أعماقه، يطالبه أن يقترب منها في لحظة الحزن الآسرة.

حاول إياس أن يعتذر إليها، وأخذ ينظر إلى جسدها وهو في باب الحمَّام. ثم سألها وعيناه لا تفارقانها عن لجوئها إليه... سألها بصوت متقطع، غير مفهوم. وكأنما كان يلومها. صحيح أنه لم يقوَ على أن يشيح بنظره، لكن صوته ارتبك، وهو يدرك أن ما من شيء بمقدوره أن يفصله عن لين، حتى وفاة صديقه. وكأنما التقطت لين بعض ارتباكه. وسرعان ما أغلقت الدُّش، مرتبكةً، وألقت على جسدها منشفةً. تجاوزته خفرةً، وعبرت الحيز الضيق الذي تركه لها.

ربما أرادت بدورها أن تساعده على الاقتراب منها، مُنقادةً بشعورها بالفقد. ربما لم تعرف ماذا تتصرف، فعندما تجاوزته ودخلت الغرفة، لم تغلق الباب. ومضى وراءها، مأخوذًا بذكرى بعيدة

عن زوجته، أقرب أن يكون ممسوسًا بالذكرى. فيما أرادت لين أن تشتت ألمها في اشتهاء كاد أن يقارب المستحيل. وها هي عشية ليلة وفاة عشيقها، تمضي إلى سرير صديقه. وهي تعرف، أنها لن تعود كما كانت، لقد فقدت فرصتها بأن تكون فتاةً عادية. وهي تعرف، لولا أنها لم تتجاوز غرفتها ظهيرة اليوم وهي عائدة من الجنازة، لما كانت الآن في سريره، على الرغم مما يجمعهما. لكن في النهاية، لم يكن يوجد ما يدفعها إلى سريره سوى وجودهما معًا يواجهان المحنة نفسها. وكأنما مصادفةً كانا معًا، فيما الخارج يبحث عنهما متأكدًا من تآمرهما. وهكذا، مع كل لحظة تمر ولين في منزل إياس، كانت تَسِمُ نفسها وسمًا لن تستطيع الفكاك منه ما حَيتْ. إذ بعد أن أعلن المحققون تفاصيل الجريمة صارت مدينةٌ كاملة تطلب محاكمتها. وقد وجدت نفسها بعد استتار طويل في حكاية على الملأ؛ نجمة تبرق في سماء الخطيئة.

٢

كانت لين تنتظر مجيء إياس قبل أن تقرر أن تستحم. وهي أكثر من يعرف أن يوسف قبل أن ينتهي قتلًا، أو انتحارًا، فقدَ فرصته في أن يعيش في علاقة زوجية طبيعية، وفقدَ تلك الفرصة قبل أن يلتقي بها منذ الأساس. الحكاية التي جمعته مع صفاء هي العلاقة التي أزَّمته، صفاء هي المرأة التي لم يقوَ على نسيانها. لأنه لم يكن بمقدوره أن يحكي حكايته معها. وكان يبدو متألمًا من فقدها. لين عرفت الحكاية من صفاء التي كثيرًا ما أفضت بأسرارها أمام لين. وكانت تريد أن تخبر لين، أن تبرر الانفصال عن إياس أمام أحد غريب عنهما. كانت صفاء تؤكد أن ما جمعها بيوسف ليس نزوة، لو استمرَّا بالعيش في البلدِ نفسه، لو استمرَّا في لقاءاتهما التي كان قاسيًا على صفاء بترها لنَمَتْ حكايتهما، ولتغير مصير عائلتهما على نحو مختلف عن التغير الخفي الذي طالهما. لم تُرِد صفاء أن تؤذي ريما، بأكثر مما فعلت.

لم يخطر للين قبل ذلك اليوم أن تصبح في انتظار إياس، بعد أن فقدت يوسف. كلا الرجلين يحمل ندوبًا سببتها امرأة واحدة. لين ورثت عنها غيابها في حياة يوسف، وأوشكت أن ترث غيابها في

حياة إياس. لولا أن تهمة القتل اقتحمت عليهما الباب، وهما في خلوتهما.

وفي خلوتهما، أحدهما مسكون بالفقد والآخر بالخديعة، وكلاهما يشتكي غيابًا من نوع ما. وجد إياس فيها زوجته التي اشتاق إلى أن تكون في أحضانه. ووجدت لين فيه انتقامًا ما، من تلك الخديعة التي تشبه الاحتقار، التي رماها يوسف إليها، ومن ثم قَتل نفسه في لحظة تخلٍّ من اللحظات الكثيرة التي كان يشكو فيها غياب الحب. وهي أوقاتٌ كانت تعتقد أن وجودها إلى جانبه يصنع له بعض العزاء. لكن عندما كان رأس إياس بين فخذيها، على سرير صفاء؛ بدا أنها نجحت في أن تطرد ذكرى يوسف عنها. المؤكد أنهما كانا تحت وقع الصدمة، والمؤكد أيضًا أنهما كانا وحيدين، وفوقهما، من حولهما وفي جوارهما؛ بل في داخلهما كذلك؛ تحوم رائحة الخديعة والموت.

كان إياس غائبًا في وِهاد جسدها، غافلًا عما يقال عنه في الخارج. بعد أن شاعَ أمرُ خيانة صفاء له مع صديقه، وملأ نبأ الخيانة فضول الناس أكثر مما أثارتهم الجريمة. لكن كان إياس آخِر من يعرف في اللاذقية خيانة زوجته له. حتى إنه، لو عرف، لم يكن ليدعوها خيانة، بعد أن التمس في مرات عديدة انكسار الحب بينه وبين صفاء. والتمس احتقارها ليوسف، الاحتقار الذي كان يأتي من تحقق رغباتها. إياس كان يعرفها؛ ما إن تأتي برغبتها حتى تحتقر موضوع رغبتها. هذا مآل زواجها منه. وهذا مآل علاقاتها كلها.

كان الخارج يغلي نقمةً على عشيقة القتيل وعلى صديقه. كان

الخارج يغلي ضد ضحايا صنعتهم الاستكانة والشعور العام بالخزي. ومَن كانا عاشقين وقتلة بنظر الخارج، كانا تائهين في استراقات الجسد، وفي عذوبته التي تلت الموت.

وفيما كانت لين تلثمُ شفاهَ إياس، تلثم أصابع يديه، وتترك رأسها ينداح على قدميه، محتضنة بيديها كامل ساقه. ولين تفعل قصارى جهدها كي تحيط به، وكي يعوم في عاطفتها. كي يغيب فيها، داخلها، في غمرة حنانها وشقائها. كان الخارج يتأهب ليكسر فردوس المطرودين. إياس كان مباغتًا من لين، مباغتًا بها في منزله، مباغتًا بها على سرير الزوجية، ومباغتًا وهو داخلها فيما تحيط به، تضيء عتمته وعزلته وخوفه من النساء وعجزه عنهن.

وهكذا، اقتحم عناصر الأمن الجنائي المنزل، رأوا المشهد المسروق، وشقَّ عليهم أن يبعداهما. لكن لا مناص لهذه الحكاية أن تنتهي، لا مناص للين من أن تُهتَك. وقد رمى عليها أحد العناصر ما يستر بعض عُريها، نهرها، واقتادها إلى الخارج الملوث بالفضيحة والعار. أما إياس، فقد أتاح له انشغال عناصر الأمن الجنائي باقتياد لين قبله، الوقتَ كي يرتدي شيئًا يستر عُريه، إلا أنه بقي يتأمل عري لين، وهي تداريه ما استطاعت. بدا أن نظره انساق وراء عريها، ليس نظره وحده، بل انسلَّ معها شيءٌ من وحدته. وقد طردتهُ من وَهْم عفته، وحررته من أكثر أكاذيب حياته سطوةً عليه.

وفيما كان عناصر الأمن الجنائي يقتادون إياس خارج الغرفة، راح يتأمل الطعامَ الذي بردَ في المطبخ، والثياب المرمية على الأريكة في الصالون، وألعاب ابنه في الردهة. وفي الخارج، كان الليل يغطي

عريه، فيما أخذ يفكر بحياته التي تداعت وانتهت، يتذكر ابنه، وقد أدرك أخيرًا أن بإمكانه التحرر من سطوة المرأة الغائبة؛ أخذ يغالب شعورًا قاهرًا ومريرًا بالقول لنفسه: «الآن بدأت حياتي».

وعندما كان عناصر الأمن الجنائي يدفعون لين بعنف إلى سيارتهم، أخذ إياس ينظر إليها، إلى أكثر الفتيات شقاءً، ممتلئًا بشعور الحب نحوها، وقد جلبتْ إليه مع العار، الخلاصَ الذي كلفه سنوات من حياته.

اللاذقية

صيف ٢٠٢٢ - ربيع ٢٠٢٣

telegram @
yasmeenbook